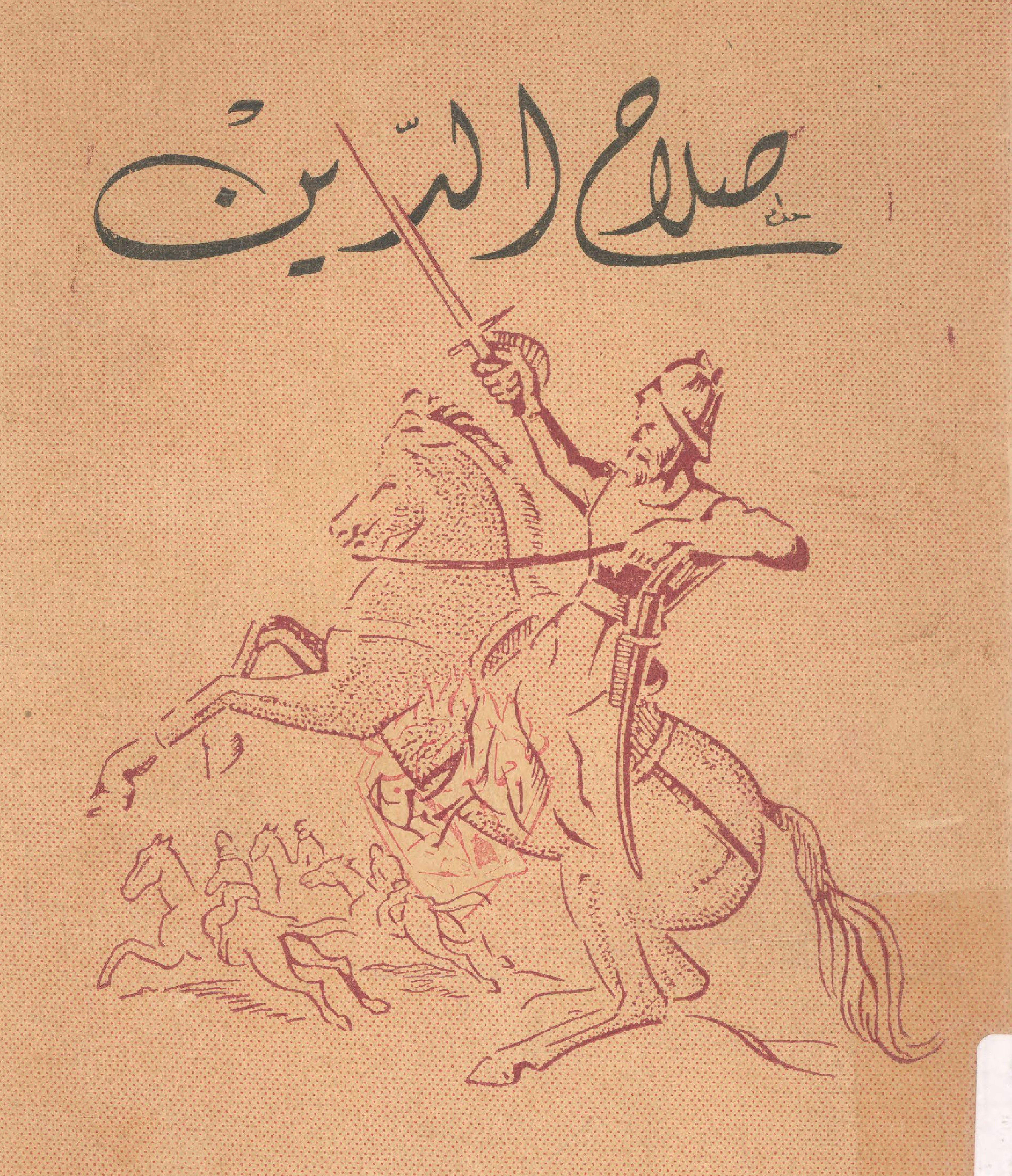
صلاح الدين



عبد اللطيف حمزه

صلاح الدين

بقلم

عبد اللطيف حمزة
المدرس بكلية الآداب

١٩٤٤



بين كتابين

لقد فرق الزمن بين ابن المقفع وصلاح الدين فقد فصل بينهما نيف وخمسمائة سنة وكان صلاح الدين من رجال السيف ... بينما كان ابن المقفع من رجال القلم ومات رجل السيف ميتة هادئة مطمئنا على سريره بينما مات رجل القلم مقتولا شر قتلة... ولكن ... ولكن رغم كل هذا جمعت بينهما العبقرية والفطنة وهبة النفس وفناؤها فى سبيل الفكرة والعقيدة ... وجمع بينهما أيضاً قلم عبقرى وأديب فذ وباحث مدقق هو الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة.

ويشاء الله إلا أن يفرق أيضا ـ بين الكتابين كما فرق في الزمن بين الشخصين فكان ابن المقفع فى حلة زاهية مشرقة . . . على ورق صقيل فاخر . . . ومحلى بالصور الملونة وكان صلاح الدين بطل الحرب والنزال من حظه أن يصدر ابان الحرب ـ فى هذه الحلة العسكرية الصرفة . . الحبيبة إلى نفس صلاح الدين والتى طالما ارتداها وأضفى عليهامن عظمته وعبقريته الشيء الكثير

ولكن إذا أمكن للقارىء أن ينسى نوع الورق وشكله فانه سيجد فى هذا الكتاب مثل ما وجد فى كتاب الدكتور الأول دقة فى البحث وحلاوة فى الأسلوب وجزالة فى التعبير وتجديداً فى التبويب والترتيب ... هذه العناصر التى تكون طابعا ممتازاً للمؤلف ... الذى أحب ابن المقفع فأخرجه كما لم يخرجه انسان من قبل . . . وأحب صلاح الدين فكتبه كما لم يكتبه إنسان من قبل .

ولا شك فى أن هذا المؤلف القيم سيلقى مالاقاه كتاب ابن المقفع من نجاح لا من ناحية الكم فيما يباع فى السوق فحسب ولكن من ناحية النجاح العلمى والأدبى أيضا وهو وحده هدفنا وهدف المؤلف الكبير .

٢١ ـ ٣ ـ ١٩٤٤

رئيس جماعة الكتاب

م . عبد المنعم

الإهداء

... إلى الذين يدعون إلى الوحدة العربية ، وإلى الذين يحبون أن يقرأوا فصلا من فصول البطولة الإسلامية

أقدم هذا الكتاب

عبد اللطيف حمزة

أخوان

كان نجم الدين أيوب رجلا قوى الجسم جم الصحة خفيف الحركة رضى الخلق ظاهر الذكاء بعيد النظر ، وكان أخوه أسد الدين شيركوه شاباً لا يقل عنه فى صفاته الجسمية والعقلية ، وكانا ولدين لأب كردى الأصل قيل إنه كان ينتمى إلى أرومة عربية عريقة . وكان يعيشان فى أعالى العراق حيث يعتصمان بالجبال ، ويروضان نفسيهما على أعمال السيف وركوب الخيل ولعب الصوالج ، حتى لم يكد العراق يعرف لهما نظيراً فى الفروسية التى عرفها المسلمون فى القرون الوسطى . واشتهر أمرهما حتى فكر فى اصطناعهما كثيرون من أصحاب السلطان لذلك الزمان ، ونظر أهل بغداد ، فاذا أولهما وهو نجم الدين يصبح حامياً لقلعة (تكريت) وناهيك بحامى هذه القلعة الهامة من قلاع دجلة . ثم نظر أهل بغداد فاذا مودة تنشب كذلك بين هذا الفارس ، وبين أمير دولة من الدول الناشئة هى دولة الأتابكة . وهذا الأمير الأتابكى الكبير هو (عماد الدين زنكى) حاكم الموصل . وكان الجند يعرفون فى هذا الأمير قسوة وعنفاً وشدة ، وكان الفرنج الذين أتوا من الغرب واستوطنوا بعض جهات الشرق ، واستقروا فى هذه الجهات لحماية بيت المقدس يذكرون هذا الأمير فيذكرون معه الصبر والبسالة والجرأة ، وأما الرعية فى الموصل ، فكانت ترى فيه ميلا إلى الظلم والعسف ، حتى لقد كرهه أكثرهم وإن كانوا يخافونه ويهابونه ويقصون فيما بينهم أقاصيص غريبة فى هيبته والخوف منه . وبقى الأمير على هذه الحال حتى سمع من يغنى على شط العاصى ليلة ما بهذا الشعر وهو قوله :

اعدلوا ما دام أمركمو نافذاً فى النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر

وكان صوت المغنى جميلا رزيناً رهيباً من حلاوة اللحن وسكون النهر ورهبة الليل ، فتأثر الامير تأثراً عميقاً وبكى ، وتبدلت نيته فى الظلم وأخذ نفسه بالعدل فمالت إليه الرعية التى كانت نافرة منه ، حتى كان يوم نظر فيه الأمير ، فاذا خيل الخليفة العباسى قد أظلت الموصل وكاد الامير أن يهلك لولا حيلة صديقه القديم نجم الدين أيوب ، فقد أقام له المعابر على النهر فلما جازها أمن الطلب وخاب قصد الخليفة . وكانت هذه الفعلة من نجم الدين سبباً فى إثارة البغداديين عليه وتربصهم به فنشب الشر بينه وبينهم ، وأخذ هذا الشر فى كل يوم يزداد شدة وقسوة ، حتى كان وقت عمد فيه أسد الدين شيركوه إلى قتل ضابط كبير من ضباط الخليفة بسبب شجار عنيف حدث بينهما . وإذ ذاك أصبح من العسير على الأخوين الفارسين أن يقيما فى هذه المدينة التى ثارت ضدهما إذ أصبح لأهلها عندهما مثل هذا الثأر العظيم ، ومن ثم لم يجدا بداً من الرحيل .

وفى الليلة التى اجتمع فيها الرأى على ذلك ولد لنجم الدين أيوب ولده صلاح الدين ، فتطير الأب لهذا الميلاد التعيس ، لانه اقترن بخروج أبيه وعمه من ذلك العز الشامخ الذى كانا يفخران به (بتكريت) إلى حيث لا يعلمان لهما طريقاً يسلكانه . أو عملا يطمئنان إليه .

ولكن فيم الحيرة أيها الأخوان الكريمان ؟ بالأمس أسديتما لأمير الموصل فضلا لا ينساه ، وفى عنقه لكما يد لا ينكرها ، فاليوم تستطيعان أن تذهبا إليه فسيرحب بكما ، وسيحلكما من قلبه وقومه وجنده المكان الأسمى ، وسينشأ شبلكما فى أرض مأسدة تقوى فيها مخالبه ، حتى يأذن الله له بالفتح ، ويكون من شأنه يومئذ ما سوف تريانه وتدركان به أنكما لم تكونا على حق فى تلك الطيرة ،

ولا كنتما على حق فى تلك الحيرة ، وأن المستقبل قد خبأ لكما عزاً ومجداً ، وجعل فى عقبكما الملك والسلطان !!

وإنهما ليذهبان الموصل ، وإنهما ليلاقيان الامير الاتابكى هناك . وإنهما ليجدان منه وداً وعطفاً وعرفاناً بالجميل ، وإنه ليستبشر بهما ؛ ويرى فى قدومهما إليه آية مجده وصعود نجمه واتصال سعده . ثم ما هو إلا أن يشركهما فى حروبه حتى يتم له فتح مدينة عظيمة هى مدينة (بعلبك) فيرى الامير أن يكافىء به بهما أحدهما وهو نجم الدين فيجعله حاكما لها ، ويستبقى معه أخاه (شيركوه) فيبقى أثيراً فى بلاطه حتى يترك الأمير هذه الدنيا ، ويرث أبناؤه من بعده ملكا لم يزل فى حاجة إلى الجهد وحاجة الى التوسع .

* * *

وكان من أولاد هذا الأمير رجلا ورث عن أبيه التقى والدين ، كما ورث عنه حب العدل والرعية ، وهذا الرجل هو نور الدين محمود . ونريد أن نتفق مع ابن الاثير فنقول إن التاريخ الإسلامى لم يعرف أشد منه تأثراً بالاسلام وحباً للاسلام ، وذلك باستثناء الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز . نظر هذا الأمير الجديد . فاذا أبوه قد اعتمد فى بناء ملكه على هذين الفارسيين العظيمين نجم الدين وأخيه أسد الدين ، فوثق عرى المودة بينه وبينهما وأراد منذ بداية ملكه أن ينتفع بهما فأعاناه على فتح (دمشق) . وبهذا الفتح الاخير ثبتت قدم الاتابكة بالشام وتكونت لهم هناك مملكة قوية فكر صاحبها إذ ذاك فى أن يكافح بها من أجل الدين ، وأن يعمل بها لمصلحة المسلمين ، وأن ينتفع بها فى طرد الصليبيين وأن يمسح بها عار وجودهم فى قطعة من أرض الاسلام بحجة المحافظة على بيت المقدس .

والحق أن حياة نور الدين كانت كلها دروساً ينتفع بها المسلمون والمسيحيون

المجاورون فى ذلك الحين ، حتى لقد فتن النـاس فى دمشق وغيرها من حواضر الشرق الاسلامى فتنة عظمى بشخصية هـذا الأمير ، وظلوا يسمرون حولها سمراً لطيفاً ، والشعراء معهم ينشدون الشعر فى تمجيده وتسجيل مفاخره .

والغريب فى المجتمعات الشرقية لذلك الوقت — أعنى الوقت الذى سيطر فيه الدين على نفوس المسلمين إلى هـذا الحد ، وكان لفقهائهم السلطان الأكبر على نفوس الشعب — تقول الغريب فى تلك المجتمعات الشرقية إذ ذاك أن الناس فيها كانوا لا يستجيبون لخيالهم بقدر ما يستجيبون فيها لعواطفهم وميولهم فكانوا فى كل ذلك مخالفين أشد المخالفة للأوربيين فى العصر الوسيط ، وقد كان الادباء من هؤلاء يميلون دائماً إلى تلوين الحقائق التاريخية بشيء كثير من الخيال إلى حد تصبح معه هذه الحقائق ضرباً من ضروب الأوهام ومثلا من أمثلة هذا الأدب الجميل الذى تسمعه العامة ، فيلذ لها هذا السماع ، أو تقرؤه الخاصة فتجد فى قراءته كل متاع . وهذا الأدب الاخير هو ادب القصة أو الاسطورة

وإذا ذهبت تبحث عن علة لذلك التقصير فى خيال الشرقى ، لم تجد له من علة إلاالدين وفقهاء المسلمين . وقد كان من طبيعة هؤلاء المتفقهين أن يأخذوا أنفسهم ويأخذوا الناس معهم بتحرى الصدق وتوخى الحقيقة واصطناع التدقيق . وقد كان لذلك كله الاثر الواضح فى الأدب العربى ؛ فلم ترج فيه الاساطير فى الوقت الذى كان فيه للأسطورة الاوربية تأثير كبير .

فما حكى فى دمشق ومجتمعاتها عن نور الدين — وهو حقيقة تاريخية لا تزيد فيها ، وليست من وحى شاعر أو خلق أديب — إنه فى الموقعة التى استنقذ فيها الامير بعض مدن كانت بأيدى الصليبيين ، جاء سهم فأذهب عين أخ له اسمه (أمير أميران) فحزن الامير لذلك حزناً عظيما ، ولكنه مع هذا أقبل على أخيه يقول « لو كشـف لك عن الاجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى ! ! » .

وأمثال هذه القصص التاريخية عن شجاعة نور الدين وعدله وعطفه على الرعية كثيرة قد شغلت بها مجالس العامة والخاصة .

ومضى الناس فى إعجابهم بسيرة نور الدين وكان لا يسر هذا البطل من قومه وجنده ، إلا أن يصبح حب الجهاد ملء نفوسهم وغاية آمالهم ، وكانوا إذا ذكروا للامير بلاءه فى جهاده ذكروا معه بلاء أصدقائه ، ووجدوا فى سيرة الاخوين الكرديين من اللذة ما يجدونه فى سيرة الامير نفسه .



غلام

عاش صلاح الدين الطفل بعض أيام طفولته فى كنف أبيه ببعلبك ، وهى البلد التى سقطت فى يد زنكى ، فوهبها نجم الدين أيوب جزاء له على صنيعه معه .

غير أن نجم الدين أيوب عاد فتنازل عن بعلبك لبعض أولاد زنكى بعد وفاته ، فأضاف إلى سابق فضله على البيت الأتابكى الكريم فضلا آخر لم ينسه له أمراء هذا البيت ، فأحبوه وقدروه وأنزلوه من نفوسهم منزلة كبرى ، ومازالوا به حتى جعلوا منه قائداً اعلى للجيوش الدمشقية كلها ، ثم حاكما لدمشق نفسها .

فانتقل الطفل مع أبيه إلى هذه المدينة ، وبها ترىى وقضى بقية أيام الطفولة . فكان يختلف إلى الكتاب يحفظ فيه الحديث والقرآن ، ويتلقى فيه مبادىء الخط والنحو واللغة والشعر والحساب . والظاهر أن أباه لم يكن ليكتفى بذلك حتى أحضر له المؤدبين الذين تعهدوه وأتاحوا له فرصة أخرى للتعلم كما يتعلم أبناء الطبقة الراقية .

على أن القدر الذى تلقاه الطفل من الثقافة فى دمشق إلى ذلك الوقت الذى كان ضئيلا فى مجموعه لا يستحق الذكر ، لأنه إنما أتم ثقافته بعد فى مصر ، منذ أن كان فيها وزيراً فسلطاناً يتردد بنفسه على مجالس العلم ، ويستمع بنفسه إلى طائفة مشهورة من العلماء كالطاهر السلفى ، وابن برى النحوى ، وغيرهما من أقطاب العلم لذلك الوقت .

ومهما يكن من شىء فقد شب الطفل وترعرع فى دمشق حتى أصبح يافعاً يعمل الشباب فى جسمه وعقله وخلقه . وللشباب نزوة لا يستطاع دفعها ، ألقت بالفتى فى أول أمره فى أحضان اللهو والشراب ، فعكف عليهما وأعانه على ذلك منبت ارستقراطى أتيح له ولأمثاله من أبناء الأمراء والقواد وكبار الجيش .

فلما كان عام تولى فيه عمه شيركوه إمارة الحج ، عجب الناس من هذا الفتى

كيف لم يهيء نفسه لانتهاز هذه الفرصة الثمينة التي سنحت له للقيام بهذه الفريضة .

ولكن — ما للفتى ولهذه الفريضة إذ ذاك ، وهو غارق مع أقرانه وندمائه في اللهو وفي الخمر ، ينتقل منهما إلى الصيد واقتناص الطير وركوب الخيل ، ثم يترك ذلك كله إلى مشاهدة الأمراء وكبار الجند — وهم يلعبون بالكرة فوق ظهور الجياد ، ويمارسون هذا اللعب ليس حبا في اللعب نفسه كما يقول زعيمهم الملك نور الدين محمود — ولكن ترويضاً لجسومهم على الحركة والنشاط ، وتمريناً لخيولهم على الخفة في الرباط ، وإن لم يفعلوا ثقلت أجسامهم ; وثقلت معها أجسام خيولهم ، فلم يخفوا القتال عدو . واشتهر في ركوب الخيل يومئذ من حاشية نور الدين صديقه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين حتى أن من يراه وهو على ظهر جواده الذي يسبق به الريح لا يظن إلا أن هذا الرجل يموت بسبب ركوب الخيل .

ومضى الفتى على ذلك حتى أتى اليوم الذي اشترك فيه بنفسه في هذا اللعب ، وراض نفسه على ركوب الجياد ، وكان له من أبيه خير حافز يحفزه على أن ينزو معه على الخيل نزوا . وبينما هو ممتط يوما ظهر جواده إذ عثر به الجواد عثرة كادت تودى بحياته ولكن الله نجاه منها فنهض من عثرته لم يكد يصيبه شيء أكثر من رضوض كثيرة في ساقه وألم شديد في ركبتيه . ومنذ ذلك اليوم كان هذا الصبي لا يرى إلا متثاقلا في مشيته معتمد على إحدى رجليه أكثر من الأخرى كأن بإحداهما عرجا أو مايشبه العرج . غير أن ذلك كله لم يمنع الصبي من مواصلة اللعب بالكرة وأن يزج بنفسه في غمار الأمراء والقواد ، وهنا في ميدان اللعب أتيحت له فرصة أخرى خلط نفسه فيها بالقواد والأمراء ، وأخذ كثيراً من طباعهم ، وانعكست عليه صوره من ميولهم ، وأصبح فيها قريبا من أبيه ومولى أبيه — وهو الملك نور الدين محمود ، وناهيك بمن يسعده الحظ بمصاحبة هذين الرجلين العظيمين ، انه لابد متأثر بهما ، وانه لا بد مفتون

بأخلاقهما فتنة يشعر معها بأنه أصبح خلقاً آخر غير الذى كان عليه .

وذلك ما بدأ يحسه الفتى منذ ناهز العشرين , وذلك ما بدأ يحسه الرجلان من الفتى منذ آنسا منه مخايل النبل والكرم والشجاعة واللين . وذلك ما جعل نور الدين محمود يلتفت إلى هذا الشاب الصغير ، ويوليه كثيراً من عنايته وعطفه ومحبته .

والحق أن الفتى صلاح الدين كان أهلا لتقدير الملك العادل نور الدين ، وذلك رغم ما كان يبدو عليه من هدوء ورزانة ووداعة يحسبها من يراها نوعا من الخمول أو الكسل أو البلادة ، فى حين أن كان للوراثة عملها من هذه الناحية . فقد كان نجم الدين أيوب رجلا لم يعرف الناس أرجح منه عقلا ، ولا أدنى منه إلى الهدوء والثبات ، وجاء ابنه صلاح الدين يرث عنه هذه الصفات التى ملك بها أعصابه وسيطر بها على قلبه وعقله سيطرة جعلت منه رجلا يصلح للملك .

من أجل ذلك أسند الملك اليه كثيراً من الوظائف فى دمشق ، وكان من هذه الوظائف التى وليها وظيفة (الشحنة) ، وفيها أظهر الباب من الحكمة واصطناع الحلم ما فوت على منافسيه أغراضهم ورد كيدهم فى نحورهم وحملهم فى نهاية الامر على الاعتراف به والخضوع له .

وهكذا ظل الفتى بين أبيه وعمه يتمتع منهما بالحب والتقدير ، وينعم من أجلهما باحترام الكبير والصغير حتى لقد كان لا يترك مجلس الملك نفسه ، ولا كان يرى أمراً أهمه أو أهم أباه وعمه ، حتى يتلطف فى الدخول معهم فيه . فكانت هذه المجالس كلها مدرسة أخرى تعلم فيها الفتى ما لم يكن بد له من تعلمه وهو الحرب وفنون الحكم .

وعاش الفتى زمانا فى دمشق على هذا النحو ، وكأن الزمن الذى أغمض عينه برهة عنه ، أراد أن يمنحه آخر فرصة يذوق فيها لذة الراحة من تحمل التبعة التى كانت تنتظره بمصر .



جلس نور الدين يتأمل هذه التركة التى خلفها أبوه ، ويفكر طويلا فى هذا العمل الذى بدأه أبوه ، فإذا التركة مثقلة بعظائم الأمور، وإذا العمل الذى بدأه أبوه — وهو مطاردة الفرنج من البلاد الإسلامية — محتاج إلى عناء طويل ، وإذا هذا الأمر الذى أصبح يضطلع به لن يتم حتى يكون هو طرفاً هاماً فى سياسة الشرق لذلك الوقت .

وكان الشرق الإسلامى إذ ذاك موزعاً بين خلافتين عظيمتين ، أما الأولى فالخلافة العباسية المستقرة فى العراق ، وأما الثانية فالخلافة الفاطمية القائمة فى مصر . وبينهما عنصر دخيل هو عنصر الفرنج الذين أتوا إلى الشرق بحجة المحافظة على بيت المقدس .

ونظر نور الدين فى هذا الموقف السياسى الدقيق ، فإذا فى استطاعته أن يسقط الخلافة العباسية من حسابه ، فقد شاخت وبلغت من العمر أرذله ، ولم تعد قادرة على النهوض بعمل ينفع الإسلام ، وإذاً فقد أصبح الأمر محصوراً بين هذه القوى الثلاث : قوته هو بالشام ، وقوة الفرنج بالقدس ، وقوة الفواطم الشيعيين بمصر .

ثم نظر نور الدين فى هذا الموقف السياسى الدقيق ، فإذا مصر كذلك من الضعف بحيث لا تقدر هى الأخرى على الثبات فى ميدان النزاع حول هذه القضية الكبرى : وهى بقاء الفرنج فى أرض إسلامية .

« وعلى هذا فالخصومة أصبحت فى الواقع بينى وبين الصليب ونجاح أحدنا على الآخر مرهون بنجاحه فى أمر واحد ، هو هنا الظفر بمصر . ! » .

هكذا حدث الرجل نفسه بعد أن أطال التفكير ، ثم أتت الحوادث التاريخية

كلها شاهدة على صدق هذا التفكير ، بل شاهدة على أنه كان ملهما فى حديثه كأنما قد أوحى إليه به . ومن كنور الدين الشهيد فى ذكائه ونفاذ بصره وصفاء بصيرته وبعد غوره فى فهم الأمور ؟ إذا كان لابد من جلاء الصليبيين عن أرض المسلمين ، فمصر هى التى يجب أن تكون ثمنا للجلاء ، ومصر هى التى يجب أن تكون كبش الفداء ، ومصر هى التى لامفر لها من أن تقع فريسة الأسد الإسلامى الجاثم لها بدمشق ، أو النمر الفرنجى الرابض لها بالقدس !

وإنهما ليرقبان الحوادث الجارية هناك بعين كعين الذئب . وإنهما ليستبقان إلى التدخل فى شئون مصر تدخلا يراد به الغنم ، وإذا بالحوادث المصرية تدعو الغريمين بسرعة عظيمة إلى هذا التدخل وتلح عليهم الحاحا عظيما فيه . ذلك أنه قتل بمصر وزير خطير فثار لمقتله فارسان كبيران يقترن اسماهما عادة بزوال الخلافة المصرية من البلاد ولا يذكران إلا وتذكر معهما الفتن السياسية التى أدت إلى انهيار هذه الخلافة .

هذان الفارسان الكبيران هما شاور وضرغام ، ظلا يتصاولان ، وكان من سوء حظ مصر يومئذ أن كلا منهما أخذ يستعين على خصمه مرة بنور الدين وأخرى بالصليبيين . وما أسرع ماغدت مصر ميداناً لهذين الغريمين المتوثبين . وكان الحرب سجالا بينهما الى أن كتب النصر أخيراً للجانب الذى فيه رجل عرف بشهامته ورباطة جأشه هو أسد الدين شيركوه ومعه فتى لم يزل بعد فى ميعه صباه وورنق شبابه ، هو « صلاح الدين » ثم عاد الرجلان الظافران إلى الشام ، وكانت أنباء النصر قد سبقتهما فى كل مكان . وأحسب لو أن الأثير فى وقتنا هذا تولى نقل الأخبار ماكانت لتصل الى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بأسرع مما وصلت اليهم فى ذلك الوقت :

فأما دمشق فقد طربت وأسكر أهلها الفوز وراح شعراؤها وأدباؤها

ينظمون الشعر الرائع والنثر الفائق فى تهنئة الأبطال وكتابة البشائر الى الخليفة وغيره من أمراء الاسلام .

وأما « نور الدين » فقد أصبح وهو على يقين من أن مصر عما قريب ستصبح درة تلمع فى التاج الأتابكى ومركزاً يملك به جميع ما للفرنج .

وأما أسد الدين فقد عاد وبه من الشوق لأخذ مصر ما يربو على كل رغبة فى الفتح تحركت فى صدره من قبل .

وأما الفتى « صلاح الدين » فقد صحب عمه إلى مصر ثم عاد منها وقد آلى على نفسه ألا يعود اليها مرة أخرى ، وكيف يعود اليها وقد ذاق فيها من الجوع والعنت والمشقة ما أشرف به على الموت ، وذلك فى الحصار الذى ضربه الصليبيون على الاسكندرية حين تركه عمه فيها وذهب هو لملاقاتهم بمدينة القاهرة.

وجلس هذا الفتى الحزين يقص على أبيه وأخوته فى دمشق بعض ما كان يقاسيه فى هذه المحنة التى كادت أن تودى به ، وأخوته من حوله يجدون فى كلامه نغمة اليأس فيشفقون على أخيهم ويوافقونه على رأيه الذى عزم عليه . كل ذلك والأب على مقربة منهم يبسم لابنه اليائس وفى ابتسامته معانى السخرية منه ومن السخط الذى يظهره ، وفيها معانى الرضا عن المحن التى لقيها والثقة بأنها تصهره ، ففى اعتقاد هذا الأب أن هذه المحن هى التى تدنى ولده رويداً رويداً من النضج الذى يحبه له .

* * *

ومرت فترة على هذه الحال وإذا الفرنج يغيرون على مصر من جهة بلبيس ، واذا هم يوقعون فى قلوب المصريين فى هذه المرة أشد ما مر بهم فى تاريخهم من الجزع والاضطراب والخوف . واذا وزيرهم وهو شاور قد أمر بنار عظيمة أضرمت فى مدينة مصر (الفسطاط) لتكون النار حائلا بينه وبين الفرنج

القادمين عليه ، ثم لوح الوزير من وراء ناره بماله للفرنج يريد أن يطفىء به جذوة هذه القسوة التى غمرت قلوب القوم . وأما أميرهم وهو الخليفة العاضد — فقد أخذ يبعث بالكتب تلو الكتب إلى بطل المسلمين بالشام ، كما أخذ يضع فى الكتب خصلا من شعور نسائه امعاناً فى الضراعة والاسترحام ، فاكتفى نورالدين رداً على كل ذلك بأن بعث اليه بالقائد الذى كان على أحر من الجمر فى انتظار هذا الأمر .

ويأخذ « شيركوه » أهبته لهذا القصد ، ويحدر « صلاح الدين » أن يأتى اليه الأمر بمرافقته الى مصر ، ويجهد هذا الفتى فى الوصول إلى عذر يجوز على عمه وأخيراً لايجد الفتى بدأ من أن يصدع بأمر عمه هذا كارها متثاقلا ، كأنما يساق الى الموت .

ذلك بأنه ورد على ذهنه العناء والجهد اللذان ساقاهما بالاسكندرية فى حصار الفرنج ، ولم يرد على ذهنه المجد والظفر اللذان ينتظرانه بمصر : وفى ذلك يقول المؤرخون « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل ...! »

ليتك إذ تذهب أيها الفتى مع عمك تعلم أنه لن يفعل شيئاً فى هذه المرة أكثر من أنه موصلك الى باب الجنة التى تنتظرك ، وأنكما تدخلانها وتقطفان من ثمارها ، أو يشركك عمك فى الثمرة الأولى وحدها ويترك لك بعدها التلذذ بما فى الجنة كلها من ثمرات .

والفتى غارق فى أفكاره وأوهامه اذ به يسمع من يقول : « غداً تأخذ سيفك ، وتلبس درعك ، وتتبع عمك ، وتعلو خلفه ظهر جواد » وبهذه الكلمات العذبة المرة ، باغت نجم الدين ابنه ، كأنما أراد أن يقول له : « لن تريح نفسك يابنى وقد راد أن يتعبك أبوك .

وزارة

.. هذا الظفر يبدو عرائس من نور ترقص أمام القائد الكهل، وهذا اليأس يتراءى أشباحا مخيفة مظلمة لعين الفتى الذى يتبع عمه عن قصد أو غير قصد، وهذا جيش الشام تسير جنوده بخطى سريعة إلى مصر. غير أن الفرنج كانوا قد سبقوهم إليها ليبذلوا آخر جهدهم فى التغلب عليها: فأما ظفروا بها وردوا جند الشام، وأما ظفر بهم هؤلاء، وأنقذوا مصر والإسلام.

ثم ما كاد الجيشان يلتحمان حتى ارتد الفرنج الى أعقابهم، ونجت البلاد من أخطارهم، ودخلها (الأسد) دخول الظافر المنتصر، ونظر المصريون اليه على أنه رجل الساعة المنتظر. ثم يجلس الشيخ وابن أخيه لحظة يستريحان فى أثنائها من القتال، ولكنهما يتفقان فى هذه اللحظة أيضاً على قتل (شاور)، ثم لاينتظران إلا ريثما يعود الإذن بقتله من القصر، فيتولى الفتى قتله بنفسه لتتخلص البلاد منه.

أما الخليفة المصرى — فكان فى أثناء ذلك كله رهين قصره، لايكاد يظهر منه إلا بصيص عينيه ينظر بهما من خلال نافذته، حتى انجلى الموقف عن كثرة الفرنج ونصرة الكرد وموت الوزير المصرى الذى جر على بلاده من أجل أطماعه كل هذا الويل. وإذ ذاك لايرى الخليفة بدا من أن يتقدم بخلعة الوزارة إلى شيركوه، وما أسرع مايقبلها منه شيركوه، ثم ما أسرع ما تذاع أنباء الوزارة الكردية فى دمشق وغيرها من مدن الشرق، ثم ما أجمل ما يبتسم الدهر للأتابكة يومئذ عن هذا الأمل الحلو: وهو زوال الخلافة الشيعية من مصر ثم امتلاكها وطرد الصليبيين نهائيا من القدس.

كذا فلتشرق أيتها الآمال العذبة فى بلاط نورالدين ، وكذا فلتذيقيه حلاوة الظفر الذى طالما تمناه لنفسه ولدينه ولمذهبه منذ بعيد ، وكذا فليكن النصر نصيب الذين وهبوا أرواحهم وأموالهم لعقائدهم وأفكارهم ، بعد أن آمنو بها ، وحملوا غيرهم على قبولها والعمل لها ، ونسوا من أجلها كل مايلقونه من أذى وعذاب . . !

عن هذه المعانى المتقدمة كلها أخذت تفصح الكتب التى حملها البريد الشامى إلى مصر ، وفيها تهنئة الشعر والكتابة لأسد الدين بالوزارة ، بل فيها أغراء الشعر والكتابة له بأمورخطيرة . وهذا شاعر لنورالدين — وهوهنا عماد الدين الاصفهانى — يبعث إلى شيركوه بقصيدة عظيمة ، ظهر أنه كان يتعجل فيها الحوادث ويسبقها ، كما ظهر أنه كان يحرض فيها (الاسد) على اغتيال الخلافة المصرية فى مأمنها . فانظر اليه قد ختم قصيدته هذه فقال :

رد الخلافة عباسية ودع الـ دعى فيها يصادفا شر منقلب

لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها فالحزم عندى قطع الرأس والذنب!!

صبرك أيها الشاعر العجل — لاتزعجن بأبياتك هذه مريضاً نام على سريره ليعانى آلام المرض الذى يصيبه ، ويقاسى ضعفاً كاد يودى به وبأصحابه ، وارفق أيها الشاعر به وبهم ، فان لله فيهم علم غيب هم صائرون اليه !

* * *

وجلس الوزير الكردى فى الدست ، وبعث الى القصر فى طلب كاتب يكتب له ، فبعثوا اليه برجل ضئيل الجسم ، كله رأس وقلب ، قصد الوزير الى اختياره ، فجلس الرجل الى جانبه ليكتب له ما أراده ، وهو يملى على اثنين معه ، وشفتاه تمثلان الوانا مختلفة من الحركات ، لقوة حرصه فى اخراج الكلام كأنه كان يملى

بكل جسمه وعقله ودمه . هـذا الرجل هو القاضى الفاضل . وكان الفاضل هـذا مزاحماً لـكتاب القصر ، وذلك منذ التحق به على يد رجل من أولاد شاور من قبل . فثقل أمره على كتبة الديوان ، وانتظروا حتى طلب شيركوه كاتباً فأرسلوه اليه ، وظن رؤساء الديوان اذ ذاك أن أمر الكرد فى مصر لن يتم ، وأن وزيرهم هذا سيقتل كما قتل الذين سبقوه من قبل . فبعثوا اليه بالفاضل وقالوا : لعله يقتل منه فنتخلص من مزاحمته إلى الابد . . . !

وحين أتى الفاضل توسم فيه شيركوه الوزير قدرة على تصريف الامور ، ونشأت بين الرجلين صداقة ارتاحا اليها ارتياحا عظيما . وربما كان من أسباب الارتياح اتفاقهما كذلك فى المذهب الدينى ، فهما رجلان سنيان يعملان فى حكومة شيعية غزت البلاد المصرية بتشيعها منذ أجيال .

وأخذ الرجلان يفكران سوياً فى رأس الخلافة الشيعية — كيف السبيل الى قطعها بعد قطع ذنبها ، بل أخذا يفكران جديا فى البلاد المصرية نفسها كيف تقابل العمل الذى يقدمان عليه وهو القضاء على هذه الخلافة وإزالة أمرها . كل ذلك والفتى صلاح الدين الى جانبهما لايشغل باله كثيراً بأمرهما الى هـذا الحد لانه منصرف كعادته الى اللهو والى الكأس . وكان له أن يمضى فى لهوه وكأسه لولا أن الاجل لم يمهل عمه لأداء العمل الذى أهمه ، فلم تدم وزارته أكثر من شهرين وأياما حتى مات . وواجه الجيش بموته محنة كادت تعصف به وتزعزع الثقة منه لولا حزم نفر من فقهاء المسلمين ممن صحبوا جيش أسد الدين على عادة الجيوش الاسلامية فى وقت خضع الناس فيه لتيارات دينية كان لها الاثر كل الاثر فى توجيه سياسة العالم كله فى الشرق والغرب معا . فما كاد الشآميون ينفضون أيديهم من تراب هذا القائد الكبير ، حتى وقع الخلف بينهم فيمن منهم يكون الوزير ، أو فيمن منهم يكون من القوة والمنعة وكثرة الاعوان والاجناد بحيث يملك هذا الموقف الذى اصطدموا به :

فاما أحدهم — وهو الياروقى — من أمراء الجيش فقد كان رجلا قوى البأس عنيد الرأى ، فسعى حتى جمع اليه جنده وأقنعهم اقناعا تاما بأنه أولى من غيره بأن يلى هذا الامر .

وأما الآخر — شهاب الدين الحارمى — وهو خال صلاح الدين — فقد ذهب يمنى نفسه بالوزارة وينظر الى ابن اخته نظرات فيها الامل والرجاء ، وفيها الكبر والاستعلاء ، كأنما يريد أن يلفته الى أنه الاحق بهذه المكانة ، فلا ينبغى أن تتطلع اليها نفسه وفى القوم من هو أولى بها منه . وأما قطب الدين بن تليل — فقد كان أقل الثلاثة حرصا على الوزارة ، وإن كان ذلك لم يمنعه من أن يبذل فى الحصول عليها كل حذق ومهارة . وكاد الامر أن يتم لاولهم لولا سعى رجل من الفقهاء كان صديقاً لصلاح الدين وكان عظيم التأثير فى نفوس الشآميين ؛ وكانت له مكانة عظمى بينهم منذ التحق بهم وأخذ معه اخوته ، ليحاربوا فى الجيش بسيوفهم ويحارب هو معهم برأيه وسياسته ، هذا الرجل هو الفقيه عيسى الهكارى .

فاسرع أيها الفقيه لدى الامراء ، واخل بكل أمير منهم على حدته ، وكلمه بكلام ينفذ الى قلبه لاتكلم به غيره ، وليرضوا جميعاً عن صلاح الدين — لايشذ عنهم غير الياروقى الذى لم ينفذ فيه سحرك يا عيسى فهو يقول لك — والغيظ يأكل قلبه ويؤذى جسمه . أنا لا أخدم هذا أبدا : ثم يترك مصر ليلحق بخدمة مولاه نور الدين بدمشق .

ومع ذلك فكان الذى حمل الخليفة المصرى على قبول صلاح الدين هو قلة من معه من جند الشآميين ، وذلك بالقياس الى الجند الذين كانوا مع غيره من أمراء الجيش . وقد كان من نظام الجيش يومئذ أن يتألف من فرق شتى من الجنود كل فرقة منها إلى أمير من الامراء ، ففرقة يرأسها الياروقى اسمها الياروقية ،

وأخرى يرأسها الحارمى واسمها الحارمية ، وثالثة يرأسها صلاح الدين اسمها الصلاحية وهكذا ...

* * *

وأخيراً عرضت الوزارة على صلاح الدين ، وخرج بخلعتها فى موكب رائع شهده المصريون ، وتحدث الوزير الشاب عن شعوره إذ ذاك فقال : إن نفسه ضعفت عن مقامها أول الامر ، ثم أخذ يملك نفسه تدريجا فيما بعد ، حتى جاء وقت شعر فيه بعظم مركزه ، وأحس خطورة التبعة الملقاة على عاتقه ، فترك الخمر ، وتاب عن أسباب اللهو ، وبدا للناس خلقا آخر ، وجلس الى اخوانه يوما ما فأصابته رعدة كرعدة المحموم ، ثم انتفض انتفاض العصفور ، وتعرض الرجل لشيء يشبه الارهاص ، وأخذ يتمتم بهذه الكلمات :

« لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى » !!

ومنذ ذلك الحين وهو مغرق فى التفكير فى أمور ثقيلة تركه عمه لأدائها ، وترك له رجلا هو خير من يعينه على القيام بها ، هذا الرجل هو عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضي الفاضل . والحق لقد كان الفاضل من نعم الله على صلاح الدين ، وكان هذا بسببه موفقاً فى كل ما دبره من الخطط لتأسيس ملكه وصيانة نفسه من أخطار كثيرة مخيفة أخذت تحدق به .

مؤامـــرة

سمع الفرنج أبناء الوزارة الاسدية فاغتاظوا لسماعها ، وأيقنوا الهلكة مالم يأتوا الى مصر لارجاعها فنزلوا ثغر دمياط ، وضيقوا عليه الخناق ، وكادوا يأخذونه ، لولا صبر أظهره صلاح الدين فى قتالهم ، ولولا أن مولاه نور الدين ذهب بنفسه إلى حصون الفرنج ليشغل بالهم ، فرجعوا خائفين ، ونصر الله المسلمين وفرح بذلك الخليفة العاضد نفسه .

وفى اليوم التالى دخل صلاح الدين يوماً على الخليفة الفاطمى فأكرمه وقربه وأهداه كثيراً من التحف ثم اتصل الحديث بينهما مدة قال فيها الخليفة للوزير « أخبرنى أيها الملك الناصر عن نور الدين — كيف يحب الجهاد من أجل دينه » ؟ قال صلاح الدين : والله يا مولاى إنه لأستاذنا الذى منه تعلمنا وبه تشبهنا ، وهو منا بمكان الولد لنا ، نؤثره بحبنا ونقدمه على أنفسنا ، لأنه كثير الأهتمام بأمر المسلمين ، وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الحديث النبوى مسلسلا بالتبسم ، فطلب منه بعض من قرأوا له الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج » !

قال : العاضد أى خليفة فى جلد الرجل ؟ هكذا والله ينبغى أن تكون أخلاق الملك والخلافة ! . قال الوزير صلاح الدين « وضاقت ذات مرة يد هذا الأمير وعجز بيت ماله عن أداء بعض ما لجنده من العطاء ، فقال له أصحابه : يا مولانا إن فى بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والقراء والصوفية

فلو استعنت الآن بها لكان أمثل ، فغضب نور الدين وقال لأصحابه : والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا اذا رآنى بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم ان هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه اليهم فكيف أعطيه غيرهم ؟ » فسكتوا . قال العاضد « نعيت أيها الرجل الى نفسى . يحدث هذا كله فى بلاده ، ووزرائى لا هم لهم الا جمع المال والتنازع فيما بينهم على الملك والسلطان ! » . قال صلاح الدين « يحفظ الله مولاى ويقيه سوء العاقبة » !

ثم انه خرج من عند الخليفة فلقى بالباب صديقه ومشيره القاضى الفاضل فأخبره بأن شمس الدولة — وهو أخ لصلاح الدين كان أكبر منه سنا — قدم من قبل مولاه نور الدين ليبلغه تحيته وتحية أبيه نجم الدين ويقول له أنهما يطلبان اليه العمل لقطع الخطبة الفاطمية .

وجلس ثلاثتهم يتشاورون فى هذا الأمر الذى أتاهم من قبل نور الدين فقال الفاضل لصلاح الدين :

« لايحسبن مولاى أن الأفعى قد ماتت فوالله انى لأجد لها سموماً ، كما أجد فى الجو غيوماً ، وللقوم آثار نعمة عظيمة غرست فى قلوب أهل مصر محبة لن تزول » .

قال صلاح الدين « والذى نفسى ونفس محمد بيده، لقد صدق القاضى الفاضل فما رأيت أكرم من العاضد ، وأشهد لقد غمرنا بفضله ، وأغدق علينا من نعمه ولولا الغاية التى تراد منا ، لكننا له من أخلص خلصائه ، وأشد أعوانه وأنصاره ، وحمينا له هذا الملك » .

قال شمس الدولة : « فانا سمعنا أن أهل مصر رحبوا بكم ، ويسروا هذا الامر لكم ، حتى زعمنا لأنفسنا بدمشق أنكم لن تجدوا مشقة فى قطع الخطبة

بل زعمنا لأنفسنا بدمشق أن أهل مصر أنفسهم لم يعودوا راغبين فى هذا المذهب الذى فرضه عليهم القوم » .

قال الفاضل : لا يغرن الأمير ذلك ، فان أهل مصر كغيرهم من سكان كل صقع وقطر ، يقبلون اليد التى لا يستطيعون بترها حتى تمكنهم الفرصة من بترها . ثم إن الناس فى كل زمان ومكان عبيد المال وعبيد الإحسان . وإنى لأرى فى القصر حركة ، وأسمع للقوم همساً ، وإذا قامت العاصفة يا سيدى فما عسى أن تصنع ؟ وإذا وقع السابح فى الماء فكم عسى أن يسبح ؟ وإنكم الآن فى أدنى حظكم فاطلبوا أقصاه ! » .

قال صلاح الدين : « والله ما نملك البلاد بسيوفنا ولا برماحنا ، ولكن برأى القاضى الفاضل » .

قال شمس الدولة « ما أذكى الرجل وأصدق نظره وأبعد غوره ؟ ولولا الثقة بفضيلة رأيه ما جشمناه ما جشمناه » .

* * *

والحق أنه لم يكن يسيراً على صلاح الدين ، أن يزيل من قلوب أهل مصر محبة الفاطميين ، فقد تمكن هؤلاء الفاطميون من إكرام أهل مصر فى وقت لم تستطع فيه الخلافة العباسية فى العراق ، ولا المملكة الأتابكية فى الشام مجاراة الخلافة الفاطمية فى هذا الميدان . من أجل ذلك كان يفر إلى (مدينة المعز) كثيرون من الشعراء والعلماء والفضلاء الذين لم يتيسر لهم الرزق فى (مدينة المنصور) . وكان من الذين فروا إلى مصر يومئذ عالم شاعر ذهب يقول :

سلام على بغداد من كل منزل	وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها	وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها	ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وأما الشام فلم يكن أسعد حالا من العراق . وحسبك أن ترى شاعراً وصف فيه عهد نور الدين بقوله :

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة   من المعاصى وفيها الجوع والعطش !!

وحقيقة كان الجوع والعطف بالشام والعراق لا يعدلها غير الشبع والرى بمصر، واقترن ذلك فيها بحكم الفاطميين ، ومن أجله كثر فيها أصدقاؤهم وخلصاؤهم لما نالوه فى الواقع من مالهم وعطائهم . وكان من سياسة هذه الدولة ، أنها لا تفرق فى عطائها بين شيعى وسنى ، حتى لقد وصف كرمها شاعر ليس من مذهبها الدينى فقال :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة   وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع

* * *

غير أن العناية الإلهية التى واتت صلاح الدين كتبت له التغلب على أنصار الفاطميين ممن أضمروا لهم وداً ، عاهدوا أنفسهم من أجله ، على أن يتواصوا فيما بينهم ، ويجمعوا شتاتهم ، ويقوموا بمؤامرات خطيرة تزعج هذا الذى باتوا يشعرون أنه يريد أن يقطع خطبتهم ويخطب للخليفة العباسى . ووقع بعض هذه المؤامرات فى حياة العاضد ووقع بعضها بعد وفاته ، فأما ما كان منها فى حياته ، فمؤامرة قام على تدبيرها عبد خصى كان يتحكم فى قصر الخليفة ، وكان يقال له (مؤتمن الخلافة) ؛ أجمع هو ومن معه على مكاتبة الفرنج ، واتفقوا فيما بينهم على القبض على الأسدية والصلاحية من فرق الجيش الشامى ، حتى اذا خرج الوزير بمن معه لملاقاة الفرنج على الحدود أخذوا ممن بقى فى القاهرة من جنده وأتوا الوزير من خلفه ، وطعنوا جيشه طعنة ربما قضت عليه .

وتمت مكاتبة المؤتمن للفرنج على هذا النحو ، ثم شاءت الأقدار المسعفة فى ذلك الوقت ، أن يأتى رجل من التركمان يظهر أنه كان من جواسيس الوزير —

فيعبر البئر البيضاء، ويرى هناك إنساناً عليه ثياب بالية، وبيده نعلان جديدان ليس بهما أثر مشى، فينكرهما الجاسوس ويجيء بهما وبالرجل إلى صلاح الدين فيفتقهما ويجد فيهما مكاتبة للفرنج من أهل القصر. ويأخذ بالوزير الكتاب ويسأل أن يدلوه على كاتب هذا الخط، فيدلوه على يهودى من الرهط، أحضره الجند ليسألوه، فنطق اليهودى بالشهادة قبل كلامه وأعلن بذلك إسلامه، ثم أدلى باعترافاته وبأن الذى حمله على ذلك هو مؤتمن الخلافة. وهنا يلتفت الملك الناصر إلى القاضى الفاضل ويقول له: «ما أسرع، ما صدق ظنك ياعبد الرحيم فبم تشير علينا فى هذا»؟ فيقول الفاضل «أما الرجل اليهودى يا مولاى فاعف عنه واقبل اسلامه منه، وأما المؤامرة فاحفظ سرها، فهو آمن لك، وأما العبد الخصى الأسود فلا تظهر أنك تعرف من أمره شيئاً حتى تستعد له».

ففعل الوزير ذلك وأخفى سر المؤامرة ومضى (المؤتمن) فى تدبيرها حتى كان يوم خرج فيه الى قصر من قصوره وخلا فيه الذته، فأنهض اليه الوزير من ساعته من جاءه برقبته؛ وثار السودان لمقتله، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وإذا قاموا على وزير قتلوه واستباحوه، فثار أصحاب صلاح الدين؛ واتصلت الحرب بين الفريقين؛ فما وجد السودان الى الخلاص سبيلا، وأينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا. وكان الذى حمل عليهم هذه الحملة الشعواء هو (شمس الدولة بن أيوب)، فأبلى فى الموقعة البلاء الحسن، واتفق له فيها حادث عجب، وهو أن العاضد نفسه كان يراقب الموقعة من منظرة اللؤلؤ، فأمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة، ففعلوا، فأمر شمس الدولة جنده باحراق منظرة العاضد فهموا أن يفعلوا، لولا أن رأوا باب المنظرة قد فتح فجأة وخرج منه الخليفة نفسه وأمر من نادى وقال «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم..!». وكانت السودان مشتدة الأنفس بالعاضد، لعلمهم أنها إنما يدافعون عنه، وأنه راض عن هذه

المدافعة . فلما سمعوا ذلك منه فت فى عضدهم وتخاذلوا يومئذ وولوا الأدبار .

وكان من خطة (المؤتمن) — كما كان من خطة غيره من أصحاب الفتن — أن يستعينوا بالفرنج ينفرون اليهم خفافاً قبيل قيامهم بالثورة على صلاح الدين ولكن كان من توفيق الله لهذا الوزير العظيم أن يتمكن دائماً من كشف المؤامرة قبل نضوجها ، وحصر الناس فى منطقة ضيقة عند نشوبها ، وأن يكون وقودها دائماً أصحاب هذه الفتن والثورات ، يصطلون بلظاها ، ثم لا يصيب الوزير نفسه شيء من أذاها ؛ وكان من توفيق الله لصلاح الدين أن من الله عليه بحليفه ومولاه نور الدين ؛ ينقض انقضاض الأسد على حصون الصليبيين فيصرفهم بذلك عن قصد مصر لمساعدة الثائرين .

حدث هذا كله فى ثورة المؤتمن ؛ ثم حدث هذا كله فى الثورات التى أعقبت ثورة المؤتمن ، فكان الفرنج يأتون لمساعدة الثائرين من الساحل وصقلية ، وكان الفرنج يبدأون عادة بحصار دمياط ؛ فيستنجد صلاح الدين بمولاه ليشغل بالهم بالشام ؛ فما يكاد هذا يتحرك الى بلادهم ويلقى الذعر فى قلوب رعاياهم حتى يعودوا سراعا ويتركوا الثائرين لسيف صلاح الدين يحصدهم ويفنيهم ويقتل كل أمل فى تدارك الدولة القديمة .

بذلك حبطت هذه المؤامرة التى دبرها السودان ، وعاد الملك الناصر بعدها الى نفسه يوطنها على تحمل هذا الأذى الذى بات ينتظره من أعوان الدولة الفاطمية ؛ وصديقه القاضى الفاضل الى جانبه دائماً يقوى قلبه ويشد أزره ؛ ويعينه على أمره ؛ ويجود برايه ، ويفتح عينيه لكل حركة تحدث فى القصر وخارج القصر حتى جاء يوم أتى فيه شاعر من شعراء الفاطميين قال ان معه قصيدة يمدح بها الوزير ؛ فأشار الفاضل عليه بالاعتذار عن سماعها وكان من قبل يستمع من هذا الشاعر إلى أمثالها .

وكان هذا الشاعر الأريب متصلا بشمس الدولة بن أيوب يمدحه ويستمنحه وفى نفسه حب للدولة القديمة لاينكره ؛ بل من أجله رأى أن يتصل بشمس الدولة إذ ذاك كيما يظفر لنفسه بغاية كالغاية التى سعت بالمؤتمن إلى حتفه . وكان القائد الأيوبى عن ذلك كله غافلا ؛ وبقى أخوه الوزير بهذا كله جاهلا ، فنامت أعينهما عنه ولكن لم تنم عينا القاضى الفاضل ؛ فما زال بهذا الشاعر حتى كشف عنه بفطنته وحذر الوزير من مكيدته . وذلك ما نحدثك عنه فى الفصل الآتى :

سلطان

أيها الغائبون عنى وإن كنـ ـتم لقلبى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

منذ غاب صلاح الدين عن أهله وإخوته فى دمشق ، وهو لا يفتأ يذكرهم ويجد فى نفسه حنيناً اليهم ، وشوقاً إلى رؤيتهم ، وكأن الاحداث التى مرت به وكأن الظفر الذى جرى على يديه ، وكأن الحرب الطاحنة التى نجا من شرها ، ولم يزل بعد مهدداً بغيرها ، كأن هذه الأمور كلها لم تنسه دمشق والشام ، ولا صرفته عن التفكير فى الأهل والإخوان ، فبعث إليهم يستوحشهم بطائفة كثيرة من الكتب التى دلت على لطف حسه ، ورقة قلبه وسعة نفسه من هذه الناحية . وكان فى أكثر هذه الكتب التى كتبها يستعين بالشعر ، فأسعفه الشعر بكل ما كان يريد .

وفى أحد هذه الكتب — بعث صلاح الدين إلى مولاه نور الدين يطلب اليه فى رفق ولين أن يرسل اليه أباه وإخوته ، يشد أزر نفسه بهم ويعتمد فى أموره عليهم ، فلعل الأحداث أن تتغير ، ولعل الأفعى التى ضربت على رأسها منذ حين أن تفيق من سكرتها ، وتنفث السم حولها فتقتل به كل من أرادها بسوء !
وأتت هذه الكتب كذلك نجم الدين ، وكان هذا الشيخ حزيناً على موت أخيه ، أو حزيناً على الظرف مات فيه أخوه فقد مات بمصر أخوه فى وقت لم يكد فيه صلاح الدين يتجاوز الثلاثين من العمر ، فهو لا يستطيع النهوض وحده بأمر هذه المهمة الشاقة التى بات ينتظرها منه التاج الأتابكى .

« مولاى . . إن ابنى وحيد بالديار المصرية — وهو فيها بين خطرين كبيرين :

خطر الشيعة الذين يبغضونه أشد البغض ، وخطر الفرنج الذين أقاموا ببلادهم ريثما يجمعون شتاتهم ويعودون لإخراجه من مصر » . بهذا الحديث الهادئ الرزين ، ابتدر الشيخ مولاه نور الدين ، وكأنما كان هذا يفكر فى نفس الفكرة التى أفصح عنها الشيخ ، فلم يدعه يتم كلامه حتى قال له : « أجل يانجم الدين لقد كنت الساعة أفكر فى استدعائك للسفر إلى مصر ، فعندى أنه قد حان الوقت الذى تخطو فيه الخطوة الحاسمة لقطع الخطبة العلوية لتحل مكانها الخطبة العباسية » ثم سكت الأمير قليلا ومضى بعد برهة يقول :

« ولقد أتانى يا نجم الدين أن ابنك صلاح الدين أبى فى أول أمره أن يلى الوزارة بعد عمه ثم قبلها على تهيب لها , وأنها سلمت له بعد سعى من صديقه الفقيه عيسى الهكارى ، فياله من فقيه ماهر ، جمع قلوب الجند على صلاح الدين وأرضى عنه نفوس الطامعين المنافسين ، وراح يشير عليه كذلك بأن ينفق كل ما جمعه عمه من المال فى استرضاء الجند والرعية ، حتى مال إليه الجند وأحبته الرعية . أما العاضد نفسه فقد بلغنى أنه أصبح ضعيفاً قليل الجند ، بل لم يبق معه أحد من العساكر المصرية بعد ، فذلك يا نجم الدين ما جعلنى على يقين من أن الفرصة قد واتت لقطع الخطبة ، وإن كنت عجبت من ولدك منذ مدة لأنى بعثت إليه بأمرى هذا ، فاعتذر إلى بالخوف من أهل مصر لميلهم إلى صاحب القصر » .

قال نجم الدين « والذى نفس محمد بيده يا مولاى إنك لتقول الحق ، وإنى لأرى الثمرة أينعت وحان قطافها ، وإن ابنى لهيابة مسرف فى الحذر , وإنى لراده إلى شيء من الجرأة التى يتطلبها موقفه » .

وأتى الشيخ مصر ، وأخذ يناقش ابنه الرأى ، فتبين له أن ابنه على حق فيما أظهره من الخوف ، وكان القاضى الفاضل حاضراً هذا الحديث فقال لنجم الدين

« والفاطميون يا سيدى لهم أنصار كثيرون ، عرفوا ما ننويه فباتوا يأخذون للأمر عدته . وأخذت كل جماعة منهم تحوك شباكها ، وتنظم نفسها ، وتعد رجالها ؛ وكلما ازداد أمرنا قوة ازداد المصريون من جانبهم حيطة , فالرأى عندى يامولاى أن أمورنا تؤخذ بالهوينى وإلا فسدت وضاعت ثمرتها » ؟ عند ذلك انتهى خطاب الفاضل لنجم الدين فأقرة هذا على رأيه وراح يقنع به نورالدين ولكن نور الدين لم يزدد الا رغبة وإلحاحاً واستمساكا بالرأى الذى أمر به وفى لهجة حازمة لا تسمح بالرد قال لصاحبه : « ارجع الى مصر ثانية لتقطع الخطبة ؛ ولتأخذ القوم على غرة ، وذلك قبل أن تقوى شوكتهم ، وتدنو خطتهم من النضج الذى يمكنهم من الفوز » وأطرق الرجل قليلا , ثم رفع رأسه وتابع قوله فى هدير كأنه هدير الجمل فقال : « كأننى بصلاح الدين ، وقد طاب له الحكم ، وأخذ بأبهة الملك ، ورضى لنفسه أن يظل وزيراً سنياً لخليفة شيعى !! فاذهب اليه الآن أيها الرجل لتقول له : إننا لم نجعلك على جيوشنا ؛ ونزودك بسيوفنا ؛ لتصل بها الى مركز خطير تنسى به مصالح المسلمين ؛ وقد باتت مصلحتهم فى أن تزول خلافة المصريين وفى أن تصبح مصر ملكا لنور الدين وفى أن يستعين بها المسلمون على امتلاك بيت المقدس ! » .

وعبثاً حاول الشيخ أن يهدىء من ثورة الأمير ؛ وعبثاً حاول أن يقنعه بأنه قد أبعد فى الظن وأسرف فى التقدير ؛ وعبثاً حاول أن يستأذنه فى تأخير عودته شهراً أو بعض شهر ؛ وأخيراً وافق مولاه على أن يأخذ أهبته للعودة الى مصر .

واستقر الشيخ بها ووجد ابنه يراقب أمورها ويفكر فى خير الطرق التى يصل بها الى تنفيذ سياسة نور الدين مسترشداً فى كل ذلك برأى صديقه القاضى الفاضل ؛ وقد أشار عليه هذا برأى يمتحن به شعور المصريين ؛ ويعرف به مبلغ استعدادهم لقبول نظام جديد ، فقال له : « ليأذن لى المولى بأن أشير عليه برأى

فيما نحن فيه » قال : قل يا عبد الرحيم فأنا والله الى رأيك أنت أحوج منى الى سيفى هذا » فقال : « أشير على المولى بأن يبدأ بهذا العمل ؛ وهو أن يبطل من أذان الشيعة — حى على خير العمل — وهى كلمة أضافوها الى أذانهم تمييزاً لهم عن أهل السنة من أعدائهم فى المذهب الدينى . فان فعل المولى وأنكر الناس عليه ذلك عرف أن الوقت لم يحن بعد ، واذا لم ينكروا عليه ذلك علم أن الفرصة قد واتته » .

وعمل الوزير بهذا الرأى فلم يجد الرعية ثارت عليه ، ولا وجد القوم صاحوا به ؛ فشجعه ذلك على أن يأتى أعمالا أخرى أشار بها الفاضل أيضا :

فمرة يأمر بالقبض على جميع اقطاع العاضد بالبلاد ، ومرة يأمر بالقبض على جند العاضد من السودان ، ومرة يأمر بالقبض على جميع جنوده من الأرمن كل ذلك والرعية لا تنتقده ، وكبار العلويين فى مصر لا يظهر فيهم من يعارضه إذ ذاك فقط علم الرجل أنه يستطيع قطع الخطبة وهو آمن على نفسه بعض الشيء .

وجلس صلاح الدين وأبوه عن يمينه والفاضل عن يساره وفكر الثلاثة فى خطة سليمة العواقب ، أخذوا يحسبون فيها حسابا دقيقا لاحتمالاتها المختلفة ، وأخيراً استقر رأيهم على ألا يشترك فى الأمر صلاح الدين بنفسه ، بل يقوم به نجم الدين ومعه جماعة من أمراء جنده ووجوه قومه ، فلينزلوا للصلاة بالجامع الكبير ، وليأت الإمام الذى يخطب يوم الجمعة فليخطب خطبته الأولى فى معنى من معانى الدين ، ثم ليهمل فى خطبته الثانية ذكر العاضد الفاطمى فينظر وقع ذلك فى نفوس السامعين ، فاذا ثاروا فليتدخل نجم الدين ، وإذا لم يثوروا ففى الجمعة الثانية يضع الخطيب مكان الخليفة العلوى اسم الخليفة العباسى . وأما الغرض من تغيب صلاح الدين فانه إذا فسد الأمر وثار المصلون فسيعتذر هو للعاضد بأنه لم يكن حاضراً ، وبأنه ليس عن عمل أبيه راضياً ، وبأنه يستطيع أن يأمر أباه بمغادرة الديار المصرية والعودة إلى دمشق .

ثم إن الظروف كلها واتت صلاح الدين وأشار عليه الفاضل بامام جرى من أئمة المسلمين هو الشيخ الخبوشانى ، فعهدوا اليه بوضع الخطبة وانتهوا بذلك من وضع الخطة ، وانتظروا تنفيذها على هذا الوجه .

وأتى اليوم المشهود ، ولاحظ أهل مصر حركة بالجامع الكبير ، وانتظروا وقوع حادث خطير ، وتهيأت نفوسهم لمعرفته ، حتى صعد الإمام المنبر وألقى الخطبة الأولى ، ثم نهض لخطبته الثانية وحين وصل إلى ذكر العاضد لم يذكره ؛ ولكنه دعا للأئمة المهديين وللسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل والناس سكوت من الذعر كأن على رؤوسهم الطير ، قد راعهم منظر الجند الذين غص بهم الجامع الكبير وأحاطوا بالمنبر يومئذ احاطة تنذرهم بأن منبرهم انما ينطق اليوم بكلمة السيف . . !

وسمع العاضد قبل موته بقطع الخطبة فاغتم لذلك ، وقام يدخل الى حجرته فمن قائل انه قتل نفسه ، ومن قائل انه امتص فص خاتمه وكان تحته السم فمات به ومن قائل انه عثر وسقط سقطة أقام بعدها متعللا خمسة ثم مات . واتصل موته بالملك الناصر صلاح الدين فشق ذلك على نفسه وقال فى لهجة النادم على عمله « لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة » . فقال القاضى الفاضل للسلطان « لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت » !

وهكذا تم وأد الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين ؛ والعجيب أنه قام على قبرها يومئذ يبكى بكاء الحزين ؛ ومن يدرى لعل نفسه كانت متألمة حقاً لهذا المصرع الذى تم على يديه . ؟

ولكن ما ذنب الرجل فى ذلك — وهذه الخلافة النكداء كانت من المرض والإعياء بحيث أصبحت لا تصلح للبقاء . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من

تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير».

* * *

وما كادت الخطبة نفسها تتم للعباسيين، حتى أمر السلطان وزيره القاضي الفاضل فكتب بها بشارة الى مولاه نور الدين، فأمر هذا كاتبه العماد الاصفهاني فأنشأ بها بشارتين: احداهما عامة تقرا فى جميع البلاد الاسلامية، والاخرى خاصة يذهب بها القاضي شرف الدين بن أبي عصرون إلى عاهل الخلافة العباسية.
وكان يوما مشهوداً، ذلك اليوم الذى ذهب فيه القاضي بالبشارة الى الخليفة العباسي. فهنالك ازدحم القصر العباسى بوفود المهنئين، وهنالك ارتفع صوت الشعر مختلطا بأصوات الخطباء والوعاظ والصالحين؛ وهنالك مدت موائد الطعام ليصيب منها الناس على اختلاف طبقاتهم؛ ويعيدوا بها الى الأذهان ذكرى خلفائهم؛ وانهالت التهنئات على بطل المسلمين بالشام وعلى صلاح الدين بمصر وشهد الشعب الإسلامى فى الشرق أيام أعياد عظيمة قدم العهد بها؛ ثم أتته ولها هزة فرح فى قلوب أصحابها؛ ولو تمثلت السنة اذ ذاك رجلا لرآه الناس بطلا لا يبطره الظفر ولا يزعجه الخطر ولكن يقف يقول:

وقالت لى الأيام ان كنت لاحقا
بأبناء أيوب فأنت الموفق!!
هم رفعوا رأسى وقاموا بدعوتى
جهارا وطرف الرفض[1] خزيان مطرق

---

(١) الرفض هو التشيع

شاعر

ذلك الشاعر الذى قدم يوما على صلاح الدين يريد ان يمدحه فصده عنه وزيره القاضى الفاضل هو (عمارة اليمنى) ، وإنى محدثك عنه لأمرين :

أولهما — وهو سبب ثانوى — أن حياة هذا الشاعر العربى تصور فترة الانتقال من العهد الفاطمى إلى العهد الأيوبى .

وثانيهما — وهو سبب قوى — ان اسم عمارة اليمنى يقترن بمحنة أخرى من المحن التى تعرض لها صلاح الدين وكانت أشد على نفسه من محنة (المؤتمن) السابقة الذكر . وعمارة هذا شاعر أريب ثار به أهل زبيد ، وهى من أكبر مدن اليمن ، فخرج منها الى مكة هاجا لا حاجا . واستطاع بذكائه أن يتصل بامام الحرمين فبعث به هذا سفيراً من لدنه الى الخليفة الفائز بمصر ، ووزيره يومئذ الملك الصالح طلائع بن رزيك . فلما حضر للسلام عليهما بقاعة الذهب أنشدهما أولى قصائده وهى قوله :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما أولت من النعم
قربن بعد مزار العز من نظرى	حتى رأيت إمام العصر من أمم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته	ماسرت من حرم إلا إلى حرم ؟!
حيث الخلافة مضروب سرادقها	بين النقيضين : من عفو ومن نقم
وللامامة أنوار مقدسة	تجلو البغيضين : من ظلم ومن ظلم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً	فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما	وزيره الصالح الفراج للغمم

اللابس الفخر لم تنسج غلائله   إلا يد الصانعين : السيف والقلم

قال عمارة اليمني : « وعهدى بالصالح وهو يستعيدها في النشـــيد مراراً ، والاسـاتذة والامراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مـذهب . ودفع لى الصالح خمسمائة دينار ، واذا بعض الاساتذة قد أخرج لى من عند السيدة الشريفة بنت الامام الحافظ خمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال الى منزلى ، وأطلقت لى من دار الضيافه رسوم لم تطلق لأحد قبلى ، وتهادتنى الامراء الى منازلهم للولائم الخ » ومنذ ذلك اليوم ومدائح الشاعر تتوالى ويضرب فيها الشاعر على نغم فاطمى، ويعبر عن معان شـــيعية لا يقدرها حق قدرها الا من درس الادب الفاطمى والعقل الشيعى .

ثم مات ابن رزيك فرثاه الشاعر أجمل رثاء وأصـدقه ، وأتى بعـده شـاور فمدحه كذلك بشعر لم ينس فيه الوفاء لسابقه ، ثم سلمت الوزارة لصلاح الدين فحاول الشاعر أن يتصل به وبغيره من أمراء البيت الأيوبى ، وكان يحسب أن أمرهم فى مصر لن يعدو أن يكون كأمر شاور وضرغام وغيرهما من الوزراء العظام . غير أن صلاح الدين — عملا منه بمشورة القاضى الفاضـل — لم يأمن هذا الشاعر اليمنى على ملكه وقومه ، ورأى الشـاعر ذلك منه فصدع الحزن قلبه وملأ اليأس نفسه ، ومع ذلك ذهب الشاعر مرة إلى صلاح الدين بقصيدة يهنئـه فيها بالوزارة ، وفيها يقول :

ولولا اعتقادى أن مدحك قربة   أرجى بها نيل المثوبة والاجر
لما قلت شعراً بعد إعفاء خاطرى   ولى سنوات منذ تبت عن الشعر
فأوص بى الايام خيراً فانهـا   مصرفة بالنهى منك وبالامر
وجائزتى تسهيل أذنى عليـكمو   وملقا كمولى بالطـلاقة والبشر

ولقد كان سهلا على الوزير العظيم أن يسهل أذنه للشاعر المحروم ، وأن يتلقاه

بالطلاقة والبشر كما يتلقى غيره من شعراء مصر ، لولا خوض هذا الشاعر فى إفساد الدولة الجديدة خوضاً أفقدة عطفها ، وقطع عليه كل أمل فى تقريب أمرائها . ونظر عمارة فاذا هو يمعن فى رجائه ، والسلطان يمعن فى اعراضه وجفائه ، ففكر أخيراً فى أن يذهب اليه بقصيدة يراهن بها على حياته ، وفيها أخذ الشاعر المسكين يعدد نعم الفاطميين ، ثم يتجه الى صلاح الدين فيضرع اليه فى ألا يقطع عنه إكرامه وعطاءه ، فانما هو شاعر غريب أتى الى مصر فى طلب الجاه والثروة ، ولا مطمع له فى غيرهما . فلنسمع اليه فى هذه القصيدة التى جعل عنوانها « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » حيث يقول :

أيا أذن الايام إن قلت فاسمعى	لنفثة مصدور وأنة موجع
تقاصر بى خطب الزمان وباعه	فتقصر عن ذرعى وقصر اذرعى
فيممت مصراً أطلب الجاه والغنى	فنلتهما فى ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل إذ زاد نيلهم	فأحمد مرتادى وأخصب مرتعى
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه	من الحكم المصغى الى فأدعى
سكت فقالت ناطقات ضرورتى	إذا حلقات الباب علقن فاقرع
أعندك أنى كلما عطس امرؤ	بذى شمم أقنى عطست بأجدع
ظلامة مصدوع الفؤاد فهل له	سبيل الى جبر الفؤاد المصدع
فيازارع الإسلام فى كل تربة	ظفرت بأرض تنبت الشكر فازرع!

عجباً لهذا الشاعر المحزون كيف يطمع فى أن يكرمه صلاح الدين . وبينه وبين الدولة الزائلة كل هذا الود ؟ إن للسياسة حكما غير هذا الحكم الذى رضيه الشاعر لنفسه ، وإن للقوم لعقلا يستطيع ألا ينخدع بلطف هذا الشاعر ومكره ، ولقد علم هؤلاء القوم أن الشاعر يشترك مع رجال الدولة القديمة فى تدبير مؤامرة عظيمة يراد بها إسقاط السلطان ، كما يراد بها إرجاع الجيوش الشامية كلها إلى الشام . ثم إن هذه المؤامرة التى اشترك فيها عمارة كانت بعد عامين من حدوث المؤامرة

التى اشترك فيها مؤتمن الخلافة . بل كانت كل واحدة منهما فى الواقع ردا على حادثة عامة من الحوادث التى اودت بهذه الخلافة . وليس شك فى ان أخطر الحوادث التى أزعجت هذه الخلافة حادثتان هامتان هما : حادثة تولى صلاح الدين الوزارة . وبعدها حدثت مؤامرة المؤتمن « ثم حادث اقدام صلاح الدين على قطع خطبة العاضد » وبعدها دبرت مؤامرة هذا الشاعر الفطن » غير ان هذه المؤامرة الاخيرة كانت أبعد مدى واوسع نطاقا وأشد احكاما وأغنى رجالا، لانها قامت بعد وفاة العاضد وزوال دولته ووثوب انصارها واشياعها يبذلون آخر ما فى وسعهم لاسترجاعها « فان ظفروا به فذاك » والا فقد ابلوا عند انفسهم عذرا يطمئنون اليه

وكان من رجال هذه المؤامرة قاضي القضاة « وداعي الدعاة » وكثيرون من امراء الجيش المصرى وكثيرون من حاشية القصر الفاطمى، ومع هؤلاء جميعا عمارة اليمنى الذى لا شك انه كان عاملا خطيرا فى تدبيرها تدبيرا محكما من جميع جوانبه .

وخلاصة الخطة التى وضعت للمؤامرة ان يتواطأ اصحابها مع جماعة من أمراء صلاح الدين كانوا قد استهووهم بالمال حتى أطلعهم هؤلاء على كثير من أسرار السلطان ؛ ثم اتفقوا جميعا على إسقاط صلاح الدين ، كما اتفقوا فيما بينهم على تعيين الخليفة والوزير ؛ وعلى تقسيم الأملاك والدور ، وعلى استدعاء الفرنج من صقلية والساحل للاستعانة بهم فى الوقت المناسب . ورأوا يومئذ أن يستعينوا كذلك بفرقة كان لهم فى القرنين الخامس والسادس ما كان للقرامطة من الخطر على العباسيين فى القرن الرابع — ونعنى بها فرقة الاسماعيلية فكر عمارة فى كل ذلك ؛ ثم فكر كذلك ، إمعاناً منه فى إحكام الخطة التى وضعها لانجاح المؤامرة — أن يغرى بملك اليمن أميراً من أخطر أمراء بنى أيوب هو (شمس الدولة) الذى كان صاحب الفضل الأكبر فى انتصار عساكر السلطان

فى وقعة السودان . وقصد الشاعر الماكر من وراء ذلك هو أن يبعد هذا الأمير الخطير عن أخيه خوفا من أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده . فانتظم الشاعر فى سلك الأمير ، وكان كلما خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وضعف ولاتها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها ، ومن جملة الشعر الذى أغراه به يومئذ قصيدته التى منها :

أمامك الفتح من شام ومن يمن ... فلا ترد رؤوس الخيل باللجم
فاخلق لنفسك ملكا لاتضاف به ... إلى سواك وأور النار فى العلم
فرب أمر يخاف الناس غايته ... والأمر أهون فيه من يد لفم

والغريب أن هذا الأمير خدعه قول شاعره فصدقه ولم يشك فى نصيحته ، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بمروءته ، فدخل على أخيه السلطان واستأذنه فى فى دخول اليمن فاتحا فأذن له السطان يومئذ لحاجة فى نفسه — هى أن يخلص من مزاحمته لأنه الأخ الأكبر له فى مصر . . . ثم تشاء الأقدار المصادقة للسلطان أن تنكشف مؤامرة الشاعر وأصحابه ، وأن يكشف عنها القاضى الفاضل بذكائه فيحيط ، السلطان علما بالمتآمرين ويأتى بهم ويقررهم فيقرون ، فيأخذهم جميعاً ليصلبهم وفيهم هذا الفقيه الشاعر الذى دبر خطتهم وهو عمارة اليمنى . وأما الذين نافقوا على السلطان من أجناده فلم يتعرض لهم ، ولا أفهمهم أنه عارف بحالهم وذلك لسياسة منه رجع فيها كذلك لرأى الفاضل .

بذلك تم افتضاح المؤامرة ، ثم أعقب ذلك مجىء الفرنج وكان أحدهم — وهو صاحب صقلية — قد بعث بأسطول عظيم إلى الاسكندرية فحمل الأسطول على هذه المدينة حملة صادقة ، وقتل من أهلها يومئذ نحواً من سبعمائة ، ونهض السلطان بعسكره إلى هناك فهجم على الفرنج فى خيامهم فلم يسلم من فرسانهم إلا من ألقى بنفسه يومئذ فى البحر . . !

وهكذا فلتحبط المؤامرة التى اشتركت فيها أيها الشاعر اليمنى ، وهكذا فلتهن بهوان الدولة التى بذلت فى سبيل ارضائك كل شيء ، ثم هكذا فلتطل أيها الشاعر قبل موتك فى رثائها ، وليكن من ذلك لاميتك التى يشهد الأدب العربى أنها من أروع القصائد التى قيلت فى رثاء الدول ، ومنها قولك :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل — وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
جدعت ما رنك الأقنى فأنفك لا — ينفك ما بين قرع السن والخجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة — على فجيعتها فى أكرم الدول
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة — لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى — عليهما — لا على صفين والجمل !!!
وقل لأهليهما والله ما التحمت — فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل
مررت بالقصر والأركان خالية — من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد — من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت — رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم — حال الزمان عليها وهى لم تحل
والله ما فاز يوم الحشر مبغضكم — ولا نجا من عذاب الله غير ولى
ولا رأى جنة الخلد التى خلقت — من خان عهد الامام العاضد بن على
أئمتى وهداتى والذخيرة لى — إذا ارتهنت بما قدمت من عملى

وكأنى بهذه القصيدة الحزينة قد أعادت للناس ذكرى القصائد الشيعية القديمة التى جرت على ألسن الشعراء العلويين الأقدمين ، والتى جعلت لأدبهم ذلك اللون القاتم الجميل ، لأنه لون كلون الطيف : فيه حمرة الدم ، وفيه غبرة اليأس وفيه صفرة الخوف ، وفيه بياض مظلمهو بياض نفس هضم حقها وآمنت مع ذلك إيمانا صادقا بأنها لا بد ان تظفر به . . !

وطبيعى ان فشل مؤامرة كالمؤامرة السابقة لا يدع أملا لدعاة الفاطميين

فى أن تنجح لهم بعد محاولة . ومع ذلك فقد ثار على صلاح الدين رجل من المصريين فى الصعيد واسمه (كنز الدولة) زعم أنه يستطيع أن يعيد الدولة فاطمية علوية ، فجمع اليه خلقاً كثيراً من السودان وانتهى خبره الى السلطان فجرد له عسكراً عظيما ، وقدم عليهم أخاه (العادل) ، فسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف ، فكسرهم وأخمد ثائرتهم . . .

ومنذ يومئذ والسطان الملك الناصر صلاح الدين ينظر فاذا مصر الغنية كلها فى قبضته ، وإذا هو يفكر فى أن يستعين بأموالها على بلوغ أمنيته ، وما أمنيته هذه إلا أن يسترجع القدس من أيدى الفرنج . ولكن كيف يتيسر له ذلك والطريق إلى القدس غير ممهد ؟ أم كيف يتيسر له ذلك والفرنج يقعدون له ولغيره من ملوك المسلمين كل مرصد ؟ بل كيف يتيسر له ذلك وصاحبه ومولاه نور الدين بالشام قد خيل اليه وإلى الناس يومئذ أنه بدأ يغار من صلاح الدين ، ويظهر كأنه أستاذ محنق أوشك أن يحقد على تلميذ له تفوق عليه .



قال الأمير الشيخ لابنه السلطان : « أتدرى يا ولدى منذ كم تغير عليك قلب نور الدين ؟ » .

قال السلطان : « أحسب أن ذلك يا أبى منذ أقدمت على أن أكون وزيراً للعاضد الفاطمى ، وأخذت خلعة الوزارة قبل أن يأتينى من نور الدين إذن بقبولها » .

قال الشيخ : « هو ذا يا ولدى — فمنذ يومئذ والغيرة منك تدب فى قلبه والحذر من أن تستقل بمصر وتظهر التشيع بها إرضاء للخليفة المصرى يشغل باله ويثير هواجسه » .

قال السلطان : « والله يا أبت — لقد صبرت منه على حز المدى ووخز الإبر ، وما قدر أحد من أصحابه حتى الساعة أن يجد على ما يعتبره ذنباً ، وقد اجتهد هو نفسه أن يجد لى هفوة يعتدها على فلم يقدر ، ولقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الأشياء التى لا يصبر أحد على مثلها لعلى أتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له الى منابذتى فما أبلغته مآربه » .

— نعم ما فعلت يا ولدى ، وهذا ما نصحت لك به دائما فلكك رهن هذه التى تسلكها وتصر على اتباعها » .

— « ذلك ما فكرت فيه من جهة نور الدين ، وانى لأفكر أيضا فى غير نور الدين ممن أخافهم على نفسى . . . »

— « ومن هم أولاء ياولدى حتى أعينك عليهم » .

— « هم اخوتى يا أبى ، اذ ينظرون الى بالعين التى عرفها يوسف من اخوته ،

وقد بت أخشى غيرتهم ، وأنا أعلم فى الوقت نفسه أن اقطاعهم بمصر لا يقوم بمروءتهم ، فأحاول أن أشغلهم عنى بفتوح يعود خيرها عليهم ، وتكون مع ذلك ردءاً لنا اذا فكر نورالدين فى مهاجمتنا فى الديار المصرية ليخرجنا منها أذلة »

— « ونعم وهذا الرأى أيضا ، فما الذى تم فى أمر هذه الفتوح التى يقوم بها اخوتك ؟ » .

— « هذا أخى شمس الدولة قد أذنت له فى دخول « النوبة » فاتحا ، فلما لم يجد بها شيئاً نافعاً عاد وطلب أن يسير لفتح (اليمن) ، فأذنت له فى ذلك ، وغداً يذهب الى هناك ويقتل الخارجى الذى ظهر بتلك البلاد ، وقد بلغ من حمق هذا الخارجى أن دعا الناس بها الى قبر أبيه بعد اذ جعل عليه قبة من ذهب وسماه كعبة ، وحمل الناس على حجه والانصراف عن مكة » .

— « يا له من غى جاهل ، لهو عندى أشد غباء من هذه الفئة التى أورثنا الله ملكها وأذن لنا فحسبنا سلالتها فى القصر الفاطمى لا يتصل فيه نساؤهم برجالهم كى لا يتناسلوا . ألا فكرت أيضا فى أن تتعقب هذه الفئة فى موطنها الأول ، فى بلاد المغرب ؟ » .

— « هذا ما فكرت فيه جيداً وذلك منذ أطمعنى فيه الخادم بهاء الدين قراقوش وهو جندى باسل ، وفارس غيور يتصف بالأمانة . ألا ترى مقدرته على صيانة القصر الفاطمى منذ تسلمه اذلم يدع شيئا يخرج منه أو يدخل فيه الا باذنه » .

— « ولكن كيف السبيل الى تحقيق هذه الآمال . ومولاك نور الدين بالشام لا يرضى عن هذه الفتوح التى تشغل بها نفسك الآن ويرى فيها اضاعة للوقت وتبديداً للمال واجهاداً للترك الذين عليهم أن يعدوا أنفسهم لمحاربة الفرنج فى هذه الجهة التى تفصل الآن بينك وبينه — وهى جهة (الكرك والشوبك)

وقد بات هؤلاء الفرنج لا يخشون الا حراب الترك ولا تقشعر جلودهم الا من بقائهم فى مواطن القتال » .

وكان القاضى الفاضل دخل منذ برهة سمحت له بأن يسمع طرفا من هذا الحديث فقال :

— « ليأذن لى المولى أن أقول فى هذه المسألة الأخيرة رأياً أدرته فى ذهنى منذ أيام » .

قال الشيخ : « فقل يا عبد الرحيم » .

قال : « ليس الرأى عندى يامولاى أن تعين نور الدين على مطاردة الصليبيين الذين يحتلون المنطقة التى تفصل الآن بيننا وبينه ، فهى وان كانت فى أيدى أولئك الكفرة الظالمين ، بل فى يد طاغية منهم هو (ارناط) [1] المعروف بايذائه للسلمين ، الا أنها يا مولاى بمثابة الخليج الذى يعصمنا الآن من شر نور الدين ، ويجعلنا فى مأمن منه حتى نعد أمورنا وتثبت أقدامنا ونكون بحيث لا يستطيع أن يخرجنا من ديارنا بمجرد رغبته ، أو لأنه يريد أن ينتقم منا حين لا يتيسر لنا أن ننفذ له مشيئته » .

قال الشيخ : « فالرأى عندك اذن أن تبقى هذه المنطقة مؤقتا فى يد الطاغية ؟ »

قال الفاضل : « نعم فليست المصلحة الآن فى أن نخلى الطريق بيننا وبين رجل الشام » .

فالتفت الأمير الشيخ للسلطان وقال : « وأنت يا صلاح الدين — ما الذى تراه فى هذه المشكلة ؟ » .

فسكت السلطان برهة قصيرة ثم قال : « . . . مسألة يجيب عنها صلاح الدين

---

١) واسمه **Renauld** فى الكتب الأوربية

القائد الكردي السياسي اجابة لا يرضى عنها صلاح الدين التابع القديس . . ! ».
فابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ونظر الى ابنه نظرة فيها غير كثير من الغرابة ثم قال : « الآن حين استحكمت وتقدم بك العمر » . ! ! — قل ماالذى تعنيه بكل ذلك ؟ » . قال السلطان :

« الحكمة كلها فى رأى الفاضل . فالسياسة هى التى أملت عليه هذا الرأى الحكيم ، والسياسة هى التى قد تحملنا على مخالفة نور الدين . وأنا أعرأن المخالفة لا تتفق والغرض الذى جئنا من أجله الى مصر ، وهنا أطرق الشيخ طويلا كأنما يدير هذا الرأى فى ذهنه ويزنه بميزان عقله ثم رفع رأسه وقال : « وأنا ايضاً قد بدا لى صدق هذا الرأى .

قال السلطان « وما تقول عبد للرحيم فى هذه الفتوح التى أشغل بها اخوتى ليكسبوا لأنفسهم الشهرة فى ميدان الجهاد ، والمال الذى يقوم بمروءتهم فى تلك البلاد ؟ » .

قال الفاضل « آفة هذا الرأى يا مولاى أنه يستنفد جميع ما نملك من المال ؛ وصاحب الشام ينتظر فيما ينتظره منا أن نقرر له مالا نحمله اليه ليستعين به على كلف الجهاد الذى وهب حياته له » .

قال السلطان « فانا قد بعثنا له بهدية من نفائس القصر الفاطمى ؛ وما أكثر هذه النفائس التى به ، وما أثمنها ، ورأيت أننا أنفذنا الى الخادم بهاء الدين قراقوش أن يعدها فأعدها وبالغ فى اعدادها ، وكتبت أنت الخدمة (الرسالة) التى سارت بالهدية الى صاحب الشام منذ أيام » .

قال الشيخ « حسن كل ذلك يا ولدى ، وان كنت أعلم من أخلاق نورالدين أن هذ الهدية على عظمها لن تسره وانه . . . » .

وأراد الشيخ « أن يتم كلامه لولا أن علم فى تلك اللحظة برسول أتى من قبل

نور الدين وبيده رسالة الى صلاح الدين ، يأمره فيها أن يجمع العساكر المصرية ويسير بهم الى بلاد الفرنج وينزل على (الكرك والشويك) ويحاصرهما ريثما يجمع هو عساكره ويسير اليهما ، ثم يجتمعان هناك على محاربة الفرنج والاستيلاء منهم على هذه المنطقة التى تفصل بينهما وتقف حجر عثرة دون الغاية التى يعملان لها وهى مطاردة الفرنج .

وقرأ السلطان الرسالة التى بعث بها نور الدين ، ثم دفع بها الى أبيه ليقرأها ويقرأها معه عبد الرحيم . ونظر الثلاثة كل الى الآخر نظرات سريعة ، وسكتوا سكوتاً مريباً ، مالبث أن قطعه عليهم الأمير نجم الدين بقوله يخاطب الرسول :

وما بال الهدية التى بعث صلاح الدين الى مولاه العظيم ؟ » .

قال الرسول : « أكبر الظن عندى أنها يامولاى لم تقع منه بموقع » .

قال الشيخ : عجباً يملأ القلب ! ولم ذلك ؟ »

قال الرسول : بينا أصحاب مولاى نور الدين يطيلون النظر فى هدية السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ويظهرون اعجابهم بها ، ويتخيلون نفائس القصر الذى حوى الكثير من أمثالها ، اذ بمولاى نور الدين يخاطب نفسه بصوت سمعه الذين معه ويقول : ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا الى الذهب حاجة ، ثم تمثل قول أبى تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته   على الحصى وفيه فقر الى الذهب

فأقبل السلطان على الرسول يلاطفه ويغير مجرى حديثه ثم قال له :

« قل لمولاى نور الدين إننى لن أتأخر عن الذهاب بالجند الى الكرك »

فرجع الرسول اليه يبلغه كل ذلك . فرحل نور الدين عن دمشق الى الكرك وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول ، وذلك لاختلال البلاد ورغبة أهلها فى الثورة على النظام . وأتى الكتاب نور الدين فغضب لذلك

غضباً ذهب بكل حلمه، وشق ذلك على نفسه، وعزم على دخول مصر واخراج السلطان منها.

وبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده وخاله شهاب الدين واستشارهم، فكلهم أشار عليه بالصمت وبالصبر، ثم قام من بينهم فارس شاب حاد الطبع، هو ابن أخي السلطان واسمه (تقي الدين عمر) فقال:

« مالنا نخاف نور الدين — وهو اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن بلادنا بسيوفنا هذه ».

فوقع هذا الكلام موقعاً حسناً من نفس السلطان وهم أن يظهر الرضى به وأحب أن يتكلم فى ذلك لولا أن سبقه أبوه بقوله يخاطب تقي الدين عمر:

« اقعد أيها الصبي النزق، اقعد أيها الشاب الطائش، لبئسما تشير به. ألهذه الغاية تأكل مال المسلمين؟ ولهذه الغاية أمرنا عليكم نور الدين؟ ».

ثم اتجه الى السلطان وقال له.

« أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك — أتظن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ قال لا. قال نجم الدين:

« فو الله لو رأيت أنا أو رأى خالك نور الدين قادماً ما استطعنا إلا أن نترجل اليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا. فاذا كنا نحن هكذا — فكيف يكون غيرنا؟ وكل من نراهم هنا من الأمراء والعساكر لو راى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه، ولا وسعه الى النزول وتقبيل الارض بين يديه. وانما هذه البلاد له، وقد اقامك فيها، فان شاء عزلك، ثم لا يحتاج الى المجيء هنا لهذه لغاية، يأمرك بكتاب مع نجاب (رسول) حتى تقصد خدمته ويولى البلاد بعد من يريد ». ثم التفت كذلك القائد الشيخ الى الجند وقال: واسمعوا جميعاً أيها الجند — نحن مماليك نور الدين

وعبيده ، وليفعل بنا ما يريد ، إن شاء بقينا فى مصر ، وإن شاء نزلنا على رأيه وخرجنا عن مصر ، ونحن هنا جنوده وأتباعه . باسمه فتحنا ما فتحنا ، وباسمه نفتح كل بلد نريد بعد أن نفتحه » .

وتفرق الجند بعد ذلك ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين يعلمونه كل ذلك قال ابن الأثير : ثم خلا الشيخ بابنه وقال له :

أنت يا ولدى جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع العظيم وتطامعهم على ما فى نفسك . فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد ، جعلك غرضه الذى يرمى اليه ، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً ، بل تراهم جميعاً يسلمونك اليه . وأما الآن — بعد هذا المجلس — فسيكتب اليه أكثرهم ويعرفونه قولى . وتكتب له أنت أيضا وترسل فى هذا المعنى وتقول له :

« أى حاجة الى قصدى أيها المولى ، يجىء نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنق ويأتى بى اليك ، فهو اذا سمع هذا منك عدل عن قصدك واشتغل بسواك » .

قال السلطان « صدقت يا أبى ، وكنت من الناصحين . اننى من أجل هذا أفكر فى الذهاب بنفسى الى الكرك ، فاذا وصلت الى هناك بعثت أنت فى طلبى بحجة اختلال البلاد » قال الشيخ « فاذهب على بركة الله » .

وذهب السطان الى ذلك المكان ، وعلم مولاه بهذه الغزاة التى نفى السلطان بها عن نفسه تهمة العصيان ، ثم فكر السلطان فى العودة الى بلاده ، وانه لفى الطريق اليها واذا بكتاب ورد اليه منها ، فيه نبأ حطمت به لوعته ، واشتدت كما يقول الفاضل به حسرته وروعته ، ذلك النبأ هو موت أبيه نجم الدين بسبب وقوعه عن فرس له كان يركبه فى أثناء لعب الكرة . فأخذ الفاضل يهون على صاحبه هذا المصاب العظيم ، ويقطع الطريق بحديثه له عن الصبر والصابرين ، ويتأسى معه بقول الذى يقول :

وتخطفته يدى الردى فى غيبتى هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع ؟!

وذلك حتى دخلا مصر . وبينا هو غارق فى هذه الاحزان ، وبينا هو خائف فى الوقت نفسه من مداهمة صاحب الشام ، اذ به يسمع بموت هذا الرجل أيضاً فيحزن عليه ، ولكن يشعر فى قرارة نفسه أن حزنه لموت نور الدين قد خفف شيئاً كثيراً من لوعته على أبيه نجم الدين ، وأزاح ضيقاً من صدره كاد يتلفه ويودى بمستقبله . . . ؟! أما المسلمون فجزعوا جميعا لموت هذا البطل ، وضجوا بالدعاء له أن يجزيه الله خير ما عمل ، ولهجوا يومئذ بذكر هذه القصة التى شاعت بينهم على أنها آية حبه للجهاد الدينى وهى :

« أن الفرنج لما نزلوا دمياط فى الحصار الذى قال فيه نور الدين محمود : انى لأستحى أن يرانى الله مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج ثم فى الليلة التى رحلوا عنها رأى امام لنور الدين محمود فى منامه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : أخبر نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة . فقال يا رسول الله ربما لا يصدقنى ، فأذكر له علامة يعرفها ، فقال له النبى : قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً , ومن هو محمود الكلب حتى تنصره ؟ قال الإمام فانتبهت من نومى ونزلت الى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أن ينزل عليه بغلس ، ولا يزال يتهجد فيه حتى يطلع الصبح قال : فتعرضت له فسألنى عن أمرى ، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة الا أننى لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين محمود : اذكر العلامة كلها . وألح فى ذلك . فقلتها فبكى رحمه الله رحمة واسعة وصدق الرؤيا » .

فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج عنها .



مات نور الدين وخلف ابناً اسمه الملك الصالح اسماعيل وكان فى الحادية عشرة من عمره ، فالتف حوله أمراء أبيه بحجة أنهم يشتركون فى تدبير أمره ، وهم الوقت نفسه يتمكنون منه تمكنا عظيما أوشك أن يكون نوعا من الحجر عليه .

ومات كذلك عاهل المسيحيين بفلسطين ، وهو عمورى أو (أماليك) ملك بيت المقدس ، وترك عرشه لصبى صغير اسمه (بولدوين) . فأصبحت الامارة الفلسطينية كالمملكة النورية قطراً منقسما على نفسه ، بسبب تنازع الأمراء وبات الأمراء فى هذين القطرين معاً لا يخافون شيئا قدر ما يخافون السلطان لعلمهم أنه بقوة نفسه وبعد غايته وكبير أمله ، أحق منهم بأن يرث كل هذا الملك !

وبينا السلطان يستعرض هذا الموقف السياسى الجديد ، اذ أقبل عليه القاضى الفاضل كعادته ، فقال له السلطان :

« هلم ياعبد الرحيم وأدر ذهنك فيما نحن فيه :

هذه مملكة نور الدين قد انشعبت وظهر فسادها : كل قلعة من قلاعها الى صاحب ، والفرنج من حولهم يبنون قلاعا يتحيفون بها من أطراف الاسلام ، وأمراء الدولة النورية فوق هذا كله لا يستحيون أن يكون بينهم وبين أولئك الفرنج حلف ووئام !! » .

قال الفاضل : « لعل مولاى يعلم أنهم لا يفعلون ذلك حباً فى على ؛ ولكن خوفا وكراهية لمعاوية .

قال السلطان : « نعم أعلم ذلك جيداً . ولكن من لى بمن يخبر هؤلاء الغافلين

أنه لا سبيل الى طرد الفرنج من بلادنا الا بأمر واحد، هو توحيد جهودنا.
وأنت ترى الآن أنى أكبر ملوك الإسلام سناً . . . » .

قال الفاضل : « بل أكبرهم يا مولاى خطراً وشأناً ! »

قال السلطان : « فما الحيلة اذن فى هؤلاء الأمراء ؟ أنتركهم ونحارب الفرنج حتى نخلى منهم البلاد ، أم ندع الفرنج ونحارب هؤلاء حتى يدينوا لنا بالطاعة ويتركوا لنا هذا الغلام ؟

قال الفاضل : « لو ترك مولاى أولئك الأمراء يتنازعون فيما بينهم أمرهم، لانفردت مصر عن الشام ، ولطمع الكفر فى بلاد الاسلام » .

قال السلطان : « أعلم ذلك جيداً يا عبد الرحيم . بل من أجله أفكر فى طريقة أتدخل بها فى شؤون الشام حتى لا يستأثر به الأمراء الذين التفوا حول الغلام ، يوهمونه بأنى عدو له ، مع أنى أنا الأولى منهم جميعاً بتربيته ، والقيام عليه » .

قال الفاضل فالرأى عندى أن تبعث بالكتب الى هذا الغلام تؤكد له فيها طاعتك واخلاصك ، وتفصح له فيها عن رغبتك فى تربيته والقيام بأمره والمحافظة عليه » .

قال السلطان : « فاذا أنكر الأمراء الذين معه هذه الكتب ؟ » .

قال الفاضل : « فاصبر يا مولاى اذ ذاك ، فسيأتى اليوم الذى يستصرخك فيه بعضهم على بعض ، فاذا غصبهم الفرنج شيئاً من أملاكهم فسيتجهون جميعاً اليك لتنقذهم من هذا الشر . ويومئذ يذهب المولى الى هناك ليحفظ الولد القائم بعد أبيه ، ويعرف هذا الولد ، ويعرف الناس معه أنك أولى بأن ترث ملكه وتضمه الى ملكك وتستعين بهما على هذه الغاية التى كان يحلم بها نور الدين نفسه وهى مطاردة الفرنج » .

وبعث السلطان بهذه الكتب الى الغلام ، فقرأها الأمراء هناك ، وسخطوا

على السلطان ، ثم اختلفوا بينهم فى الرأى . وانهم لفى انقسامهم وتنازعهم فى آرائهم ، وإذا بالفرنج يغيرون على مدينـة لهم هناك ، وهى مدينة « بانياس » فلا يستطيع الأمراء النورية ردهم عن هـذه المدينة إلا باتفاقهم معهم على جزية سنوية يحملها الشاميون للفرنج ، فذلك أجـدى عليهم ، وأسلم عاقبة فى رأيهم من استدعاء صلاح الدين ليحول بينهم وبين أولئك المغيرين .

غير أن صلاح الدين لم يكد يسمع بهذه الإهانة التى لحقت بالمسلمين حتى ثار غضبه ، واستثيرت حميته ، واتخذ من ذلك حجة له على سرعة التدخل فى شؤون الشام . فاستقر رأيه على الذهاب إلى هناك . وعلم الغلام وأمراؤه بذلك كله فتركوا له دمشـق ، وفروا من وجهه إلى حلب . فأتى السلطان دمشـق ودخلها من غير تعب .

أما الأمراء الذين فروا إلى حلب فقـد استشاطوا غضبا من السلطان ، وأكلت الغيرة قلوبهم من بأسه وصعود نجمه ، ونجاح أمره ، فبعثوا اليه بخطاب شديد اللهجة مع رسول منهم ، فأكرم السلطان رسولهم ، وتلقاه بالبشر واللطف والكرم واللين . ثم قال له :

« ياهذا — ارجع اليهم لتقول لهم : إننى إنما وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسـلام . ولتربية الملك الصالح وصيانته وصيانة الشرف الاسلامى نفسه من عار الجزية التى تدفعونها للفرنج . وقل لهم يا هذا : ان المنية لو لم تفاجىء مولاى نور الدين لدفع الى بمولاى ابنه الملك الصالح إسمعيل ليكون فى كنفى وتحت رعايتى ، فأنا أولى به من غيرى ، لأننى القادر على حمايته من أذى الذئاب التى تنوشه من الفرنج » .

منذ ذلك الوقت والحلبيون وغيرهم بالديار الشامية يقفون فى وجه السلطان كما وقف الفاطميون له من قبل فى الديار المصرية

وكما يسر القدر لهذا البطل أن يكون الوارث الحقيقى للفاطميين ، فكذلك يسر له أن يرث ملك نور الدين ، أو أن يرث هذه البقعة المباركة من الأرض التى شهدت أول قبس من نور رسالة هبطت منذ حين على هذا البيت الأتابكى الكريم ، ليقوم بنصيبه فى الجهاد من أجل الدين ، ويزيل الفرنج المسيحيين الذين جاءوا من بلادهم النائية بحجة أنهم يحمون القبر المقدس .

وجمع الأمراء الحلبيون جمعهم ، وكادوا للسلطان كيدهم ، والتفوا بالملك الصالح إسمعيل يستغلون طفولته فى إثارة شعور المسلمين وإيغار صدورهم على صلاح الدين .

ثم أخذ الحلبيون يستعينون على السلطان بجميع أعدائه فى الشام . وكان من أعدائه هذه الفرقة الخطيرة التى كانت تعتصم بالجبل ، والتى كانت مصدر قلق دائم للرجل ونعنى بها فرقة الاسماعيلية . فاتفقوا مع هؤلاء على اغتيال السلطان ودخلت جماعة آثمة منهم الخيمة على حين غفلة من جنده ، ورفعت السيف لتقتله به ، وإذا العناية الإلهية تكشف عن أمرها ، وتدل عليها من جند السلطان من يمسك بهذه اليد الخائنة المجرمة أن تهوى على رقبته .

ثم لم يكف الحلبيين ذلك حتى استعانوا على السلطان كذلك بالمواصلة وكانت الموصل إذ ذاك إلى أمير خطير من آل زنكى ، له من شرفه وعظيم منزلته ما يستنكف به أن يكون تابعاً لصلاح الدين ، فأفهم الحلبيون هذا الأمير أن السلطان يملك حلب ، ثم لا يكون له بد من قصد بلاده ، وإزالة سلطانه ، والعبث بهذا التاج الأتابكى الذى هو مصدر نعمته وعلو كلمته .

كل ذلك والسلطان ينجو من كيدهم مرة بعد أخرى ، ويوغل فى فتح الشام وامتلاكه حصناً فحصناً ، والشعر أنى سار معه يسجل له كل انتصار يحرزه لنفسه ضد أولئك القوم .

وأتى يوم أصبح فيه الحلبيون ، فاذا هم محاصرون بجيش صلاح الدين ، واذا هم مضطرون الى مكاتبة حليف لهم من الفرنج كان يدعى الأمير (ريموند) أمير طرابلس ، وكان هذا الأمير أسيراً لنور الدين ثم أطلقه الحلبيون بعد وفاته ليكون ظهيراً لهم وقت الحاجة ، فلما أتى الأمير صريخ الحلبيين خف من ساعته إلى (حمص) — وهى مدينة من المدن التى افتتحها السلطان يومئذ بالسيف — فلما هجم الأمير الصليبي عليها وجد السلطان نفسه مضطراً إلى العودة اليها ورفع الحصار عن مدينة حلب . وبذلك تم للحلبيين ما أرادوا لأنفسهم ، من انقاذ مدينتهم والإفلات من مخالب هذا السبع الذى كاد يقتحم عليهم البلد .

وفكر الحلبيون أخيراً فى الأمر ، فلم يجدوا خيراً لهم من أن يكسبوا من السلطان بطريق الود والملاطفة مالا يستطيعون كسبه بطريق الغدر والغلظة والمخاشنة . وما أسرع ما يستجيب رجل كصلاح الدين لدواعى الكرم والعطف والمروءة واللين .

فهذا الملك الصالح إسمعيل يقبل بنفسه على صلاح الدين يطلب منه أن يبقى له على حلب وما حولها ، فيبقى له السلطان عليها ، ويكتفى هو بأن يكون له من حماة الى مصر ، ويترك للسائل ما فوق ذلك !

ثم هذه الخاتون ابنة نور الدين ، وشقيقة الملك الصالح إسمعيل ، تأتى اليه فى استحياء وخفر تسأله قلعة هامة من قلاع الشام ، قلعة (عزاز) ، كان السطان قد فتحها بسيفه وضمها إلى ملكه ، فيكرمها السلطان ويعزها ، ويبكى بين يديها لذكرى نور الدين ، ثم يطلق له (عزازاً) بما فيها من السلاح والمال ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يقدم لها من التحف والجوهر شيئاً كثيراً .

ثم ها هو السلطان يترك مدينة حلب ، ويفكر فى العودة منها الى مصر ، ويصمم فى طريقه على الأخذ بثأره من (الاسماعيلية) الذين طغوا وبغوا

وأعانوا عليه الحلبيين ، ووثبوا عليه وثوباً فيه ما شئت من معانى الجبن والغدر واللؤم والخيانة ، فأراد محاصرة حصونهم ، والقضاء المبرم على رؤوسهم وشياطينهم ؛ وعلم هؤلاء نيته ، وباتوا يخشون تنفيذها ، فتوسطوا لدى خاله (شهاب الدين الحارمى) ، وسألوه أن يشفع لهم . فذهب الرجل اليه فى ذلك فقبل السلطان شفاعته ، ورحل عنهم ولم ينتقم لنفسه منهم ، وعفا عنهم مع القدرة عليهم ، وآثر يومئذ طريق الصلح والسلام . وعاد إلى مصر بعد أن ترك فى كل بلد من البلاد التى فتحها أميراً اختاره له .

ميثاق

فكر السلطان في مغادرة الشام، وأخذ يتأهب للعودة إلى مصر . وبينا هو في تفكيره إذ دخل عليه العماد الأصفهاني أملا في أن يقترح السلطان عليه أن يصحبه في رحلته هذه إلى الديار المصرية . وكانت للسلطان هيبة عند جميع أصحابه تمنع أحدهم من أن يبتدره بالسؤال . فلم تكد تقع عينا السلطان على العماد حتى عرف العماد منهما أن السلطان بحالة يقبل فيها مزاحا ، فجعل يقول :

« أأذكر حاجتي أم قد كفاني (البيت) »

قال السلطان : « يعز علينا أن تكون لك حاجة لا نقضيها . أتحب أن تصحبنا في هذه المرة الى مصر ؟ أم تحب أن نقضي لك أمراً بدمشق ؟ » .

قال العماد : « بل أحب أن أصحب مولاي إلى مصر ، فان شاء أخذت أهبتي لهذه الرحلة التي اشتاقها ، فلي سنوات لم أر فيها القاضي الفاضل ، ولي سنوات يفاخرني هو بالديار المصرية ، وأفاخره أنا بالديار الشامية وتدور بيننا رسائل في هذا الغرض » .

قال السلطان : « أما الفاضل فقد شغفته مصر حباً وشغفها هو حباً ، وهو كثير الذكر لمحاسنها ، والتغني بنيلها وعجائبها ، وأذكر أنه قرأ علينا بعض رسائله اليك في هذا المعنى » .

ثم سكت السلطان برهة قصيرة ، مرت بخاطره في أثنائها أفكار ، ثم قال : « ترى — ما الذي أتمه الأمير بهاء الدين قراقوش من السور العظيم الذي أمرناه باقامته حول مصر منذ حين ؟ » .

قال العماد : « غداً تأتى خدمة (رسالة) من القاضى الفاضل يذكر للمولى فيها ما يسره ، ويشرح قلبه ، ويطمئن نفسه . . وفى همة بهاء الدين قراقوش ، وفى قوة نفسه ، وصادق عزمه . ما يكفى يا مولاى للعمل الذى ندبه له » .

قال السلطان : « الحق يا عماد الدين أنى ما رأيت رجلا أصدق من بهاء الدين قراقوش ، ولا أقوى منه نفساً ، ولا أعظم منه صبراً . بحيث لا يعرف الملل أو التعب اليه سبيلا . هذا كله فوق أمانة سمينة ، وشهامة عظيمة . ونفس كريمة ، وبذل عجيب ، وقدرة قل أن يكون لها نظير فى تصريف الأمور . وإنى يا عماد الدين مدين له كما أنا مدين للقاضى الفاضل ، وإليهما أرد فضل إقامة هذه الدولة التى أراد الله لها أن تقوم » .

قال العماد : « أجل يامولاى — إذا أراد الله لدولة أن تحيا قيض لها رجالا يعمل الواحد منهم لخيرها أكثر مما يعمل لنفسه ، وينظر إليها كما ينظر الأب إلى ولده ، يتعهده بالتغذية والتنمية حتى يبلغ أشده ! وأنت يا مولاى قد أراد الله قيام دولتك ، وإعلاء كلمتك ، ونفاذ دعوتك » .

وهما فى هذا الحديث ، واذا برسالة ترد من القاضى الفاضل وفيها « أن بهاء الدين قد أوشك أن يتم بناء السور ، وأنه بذل فيه جهداً عظيما وصبراً عجيباً ومهارة لا تصدر إلا عن أمثاله من أولى العزم » . ثم وصل السلطان الى مصر ومعه العماد ، وكان يوما عظيما مشهوداً ذلك اليوم الذى عاد السلطان فيه إلى قاعدة ملكه ، وأخذ فى تنظيم أمره ، وتفقد السور الذى بناه صديقه الأمير بهاء الدين قراقوش .

وعلم الفرنج بمغيب السلطان عن الشام ، وكانت بينه وبينهم هدنة سعى إليها السلطان ، إذ كان من خطته التى شاركه فى وضعها القاضى الفاضل أن يعمل على توحيد المسلمين فى الشرق ، قبل أن يفكر جدياً فى محاربة الفرنج وطردهم إلى ما وراء البحر .

ولكن التاريخ الذى سجل للسلطان بلاءه فى المحافظة على العهود والمواثيق كما ، سجل له صبره على هذه المحافظة مهما كلفته من خسارة أو ضيق ، هو الذى سجل على الصليبيين غدرهم وخيانتهم ، وعبثهم بكل اتفاق يكون بين السلطان وبينهم ونظرهم إلى هذا الاتفاق على أنه فرصة يجمعون فيها أشتاتهم ، ويفيقون فيها من سكراتهم ، ويعودون ذئاباً لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلوبهم ، كما لم يعرف الشرف سبيلا إلى أخلاقهم ونفوسهم ، حتى لقد استحى من ذلك كله مؤرخوهم وأظهروا كل الخجل فى كتاباتهم من هذا الغدر الذى وصموا به تاريخهم . وكان هذا الخجل يصل إلى نهايته عند أولئك المؤرخين حينما كانوا يقيسون غدر الصليبيين بصدق صلاح الدين وشدة حرصه فى المحافظة على وعده ، محافظة هى فى اعتباره أيسر ما يقتضيه الشرف العسكرى . !

فبرغم الهدنة التى كانت بينه وبينهم ، هجمت طائفة من فرسانهم على بعض مدن الشام ، وهزمت هنالك أخا للسلطان كان عاملا له على دمشق ، فخف السلطان إلى أخيه على غير استعداد . وكان أول من التقى به من أمرائهم إذ ذاك صاحب الكرك وهو (أرناط) . لقيه بجهة يقال لها (الرملة) فانتصر عليه الأمير المسيحى ، وفر المسلمون من وجهه يطلبون الديار المصرية ، وضلوا طريقهم وسط الصحراء ، ، لولا أن أدركهم القاضى الفاضل برجاله وغلمانه وأزواده فوزعها عليهم وحثهم على اللحاق ثانية ببقية الجيش وأسر الفرنج فى هذه الموقعة عدداً عظيما من المسلمين ، كان فيهم ذلك الفقيه العظيم (عيسى الهكارى) ، وهو صديق السلطان القديم ، وصاحب فضل عليه من قبل فى الظفر بالوزارة المصرية من يد العاضد الفاطمى . فلا غرو أن ذكر له السلطان هذه اليد الكريمة ، وشق على نفسه أن يراه أسيراً ، ففداه بقطعة من المال جسيمة . ثم كتب إلى أخيه بدمشق كتابا جاء فى أوله :

ذكرتك والخطى تخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة السمر

ثم أتى بعد ذلك قوله « . . لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منها إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى ، وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر الخ » .

وعاد السلطان بعد هذه الكسرة إلى مصر ، والناس يحمدون سلامته من سيوف العدو . وقدم عليه الشعراء يومئذ يعتذرون له عن هزيمته ، ويخففون من وقعها على نفسه ونفوس المقاتلين معه . وكان من هؤلاء الشعراء رجل أنشد السلطان :

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهمو　　أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس　　مرت على إصبعيه لذة العسل ! ؟

ثم غادر السلطان مصر ، واستناب عنه فى هذه المرة أخاه الملك العادل ، وجعل الى جانبه وزيره ومشيره القاضى الفاضل ، وخرج هو لملاقاة الصليبيين ليمسح عار انتصارهم منذ حين ، فلقيهم فى جهة يقال لها (مرج عيون) ، كتب له فيها النصر . وكان الأسطول المصرى فى الوقت نفسه قد انتصر انتصاراً باهراً فى البحر ، وكان يقوده شاب يحبه السلطان ويفاخر به جميع الأمراء ، وكان هذا الشاب قد أبلى بلاء حسنا فى وقعة الرملة ، ثم عاد فأظهر إقداما نادراً ومهارة عظمى فى قيادة الأسطول المصرى ، وهذا الشاب هو (تقى الدين عمر) وهو ابن أخى السلطان ، واليه كان ينظر السلطان كما كان محمد صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ابن عمه على بن أبى طالب

ومهما يكن من شيء فقد طرب المسلمون لهذا الانتصار ، وقرت به عين السلطان ، وجلس كاتبه العماد الاصفهانى فى الخيمة الكبرى ، وأخذ يكتب أسماء الأسرى على ضوء مشعل . وكان أولئك الأسرى كثيرين وفيهم (رايموند) صاحب طرابلس . فمن كان منهم يريد أن يفدى نفسه بمال يدفعه قبضه منه العماد الكاتب وأطلقه .

أوتى الشعراء صلاح الدين ، وكان فيهم شاعر وقف يقول :

إن هذا الفتح المبين شفاء لصدور وقرة لعيون
هو يوم اضحى كيوم حنين سهل الله نصره فى الحزون

إلى آخر هذه القصيدة العظيمة التى سبقتها أو تلتها قصائد أخرى كثيرة استمع اليها صلاح الدين . ثم ترك وراءه (مرج عيون) واتجه بجيشه إلى حصن منيع من حصون الصليبيين ، ينسب إلى فرقة كانت تلقى الرعب فى المسلمين هى فرقة (الداوية) . وكان يطلق على هذا الحصن من حصونهم (بيت الأحزان) أو (بيت يعقوب) أو (حصن المخاض) . وكان الداوية أنفسهم قد أخذوا فى عمارته منذ انتصروا على السلطان بقيادة (أرناط) . وقالوا ان السلطان لما سمع بأنهم يعملون فى إقامته بذل لهم مالا عظيما ليعدلوا عن ذلك فأبوا . فلم ير السلطان بداً من قتالهم ، فذهب اليهم ، وانتصر بجيوشه عليهم ، وأجهز على هذا الحصن الذى كانوا يستمدون منه قوتهم المعنوية . ثم تركهم السلطان وعاد إلى دمشق وكان فى انتظاره الشعراء الذين تغنوا بهذا النصر ، وكان فيهم شاعر من شعراء مصر قال يخاطب صلاح الدين ، ويسخر من غدر الصليبيين .

وقفت على (حصن المخاض) وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
أيسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى أيمانها وهى تحلف
نصحتكو ، والنصح فى الدين واجب
ذروا (بيت يعقوب) فقد جاء يوسف !

ثم رغب الفرنج فى الصلح والهدنة . فوهبهم السلطان الصلح والهدنة ، وتغنى الشعراء يوم الصلح ، كما تغنوا من قبل يوم النصر ، لأنه كان صلحاً عاما دخل فيه الفرنج والمشارقة والروم ، كما دخل فيه أهل الموصل وديار بكر وحلب . واتفق الجميع مع السلطان ألا يشهروا فى وجهه سيفاً ، ولا ينقضوا له عهداً .

ولكن دلت الآيام بعد ، على أن النفس التى طبعت على الغدر لا يمكن أن يصدر عنها غير الغدر ، وأن النفس التى جبلت على الصدق لا يمكن أن تسام خطة غير الصدق , وأن هذا الرجل الكريم إن صح أن يكون له ذنب عظيم ، فهو انه كان يثق بوعود أعدائه دائماً، برغم أن أعداءه لم يصدقوا ما عاهدوه عليه مرة واحدة

وهنا يجد القصص والتاريخ ، أو يجد الأدب والأخلاق مجالا لحديث له أهميته ودلالته :

فقد يعجب الناس برجل عبقرى فى الحروب ، يستهزىء بالخطوب :

كالليث بل مثله الليث الهصور إذا غنى الحديد غناء غير تغريد
يلقى المنية فى أمثال عدتها كالسيل يقذف جلموداً بجلمود

أو يعجب الناس برجل داهية خطر ، ينال بالرفق مالا يناله الجبار بالبطش أو العنف . ويصدر الرأى فتأتى الحوادث كلها شاهدة على صدقه ومبلغ نفعه :

موحد الرأى تنشق الظنون له عن كل ملتبس منها ومعقود

أو يعجب الناس برجل رقيق الحس، له قلب ينبض بمعانى الرحمة والحنان ، وله نفس تفيض بمعانى البر والإحسان :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

قد يعجب الناس بكل رجل من هؤلاء ، ويتجاوز إعجابهم به حدود المدح والإطراء ، ولكن إعجابهم هذا لن يكون فى حالة من الحالات أصدق منه فى حالة الاعجاب بخلق الوفاء ، يصدر عن نفس كريمة عظيمة هى هذه النفس التى لا ترضى لصاحبها يوماً ما بأن يربح الدنيا كلها بطريق الغش أو الخيانة ؛ ما دام فى قدرته أن يكسب جزءاً ضئيلا منها بطريق الصدق والأمانة ، ومعنى ذلك أن زيادة إعجاب الناس بخلق الوفاء ، مصدره أن الوفاء يكلف صاحبه من المشقة أكثر مما تكلفه الفضائل الأخرى .

وهكذا كان صاحب السيرة التى نكتبها جندياً لا نظير له فى ميادين القتال، وسياسياً له من طبيعته الكردية الماكرة ما أعانه على أن يكون رجلا فى ميدان السياسة ذا بال، ورحيما إلى الحد الذى تسمح به، فتحكم أن صاحب هذا القدر من الرحمة لابد أن يكون له أكبر حظ من القوة المادية فضلا عن القوة المعنوية وعدلا ينصف الناس من نفسه، ويسوى فى القضاء بينه وبين خصمه مهما صغر هذا الخصم؛ وأهم من ذلك كله أو أدعى إلى الاعجاب من ذلك كله، أنه كان رجلا صادق الوعد، شديد المحافظة على العهد، يحترم فى سبيل هذا العهد عدوه، ويتعلم هذا العدو فيما يتعلمه منه أن الصدق كياسة، والأمانة خير سياسة، وان الشجاعة كلها فى أن تلقى عدوك أقوى ما يكون استعداداً للقاء وأن من الجبن والدناءة أن تأخذه على غرة أو تطعنه من وراء، ذلك أن آية الرجل الشجاع هى أنه لا يفرح لمنازلة عدو يكون أضعف منه . . !

كذلك كان صلاح الدين مثلا أعلى للمسالمين، وخصما شريفاً للصليبيين وكذلك كانت عظمته الخلقية والحربية التى بهرت أعين الناس فى الشرق والغرب جميعاً؛ أما المسلمون فكانوا يتغنون بها، وأما الأوربيون فكانوا يكبرونها حتى لقد شغلت هذه الشخصية الفذة، أذهان النساء المسيحيات فى أوربا، فذهبن يحببنها، وطفقن يحلمن بها، واتخذ الأدب الأوربى من أحلامهن مادة غنى بها، وتلذذ الناس بقراءتها طوال العصر الوسيط.



هتف بالسلطان هاتف الحج ، وتاقت نفسه الكريمة إلى أداء هذا الفرض وأراد أن ينتهز فرصة الصلح الذى عقده منذ حين ليقوم هو بأداء هذه الفريضة من فرائض الدين . وبينا هو يتهيأ لهذا القصد ، وبينا هو يهيم فى نوع من الشعور كأنه الوجد ، إذا بصديقه القاضى الفاضل يدخل عليه ويقول : أرى المولى يفكر فى أمر .

قال السلطان : نعم أفكر فى الحج وزيارة الرسول ، وأود أن يكون لى من الحظ ما كان لك بالأمس يا عبد الرحيم ، فقد كتبت إلى فى الحج ، وقلت إنها حاجة الدنيا والآخرة وأنشدت :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها

قال الفاضل : نعم يا مولاى ، وكتبت أنت على رأس الرقعة التى أذنت لى فيها بالحج قولك : « على خيرة الله . ياليتنى كنت معكم فأفوز فوزاً عظيما » .

قال السلطان : « منذ يومئذ يا عبد الرحيم وهذه الرغبة تتحرك فى نفسى ، ويدق لها قلبى ، وأتربص الوقت الذى يسمح بأداء هذا الفرض . وها هى الفرصة قد سنحت بابرام الصلح » .

قال الفاضل : « الرأى عندى الآن ألا يفكر المولى فى ذلك ، فليس الوقت ملائماً له » .

قال السلطان : « كيف ونحن فى هدنة؟ والحج لون من ألوان الجهاد ، والنية قد صحت عندى على أدائه » .

قال الفاضل : أليس ما فيه المولى جهاداً لأجل الدين ؟ أليس ما يشتغل به أسمى وأعظم نفعاً للمسلمين ؟ أليس يجاهد الصليبيين الذين ودوا لو غفل عنهم فيميلوا عليه ميلة واحدة ؟ » .

قال السلطان : « ولكننا فى صلح ، والرغبة عندى ملحة فى الحج » .

قال الفاضل : « ما يفتأ المولى يثق بوعودهم ! ! هبهم يا مولاى نقضوا العهد وانتهزوا فرصة غيبتك فى الحج . ألا — لا يأسفن المولى على زمان ينقضى وهو عطل من هذه الفريضة ، فبحسبه النية الصالحة فى أدائها ، فالله سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله ، ولكن يسأل عن نيته فى تمام هذا الفعل . وإذا كان المولى آخذاً فى أسباب الجهاد ، فهو فى طاعة هى أجل من سائر الطاعات » .

قال السلطان : « برغمى ألا أقوم بأداء هذه الفريضة . ومن يدرى لعلنا نؤديها فى قابل . فدعنا من ذلك الآن وقم بنا نغنم حياة الشيخ الامام أبى طاهر ابن عوف بالاسكندرية ، فقد سمعت ثناء عاطراً على هذا الشيخ ، وعلمت أنه الآن يشتغل بقراءة الموطأ لمالك . فلنذهبن اليه غداً وليذهب معنا أولادنا جميعاً لسماعه والاستفادة منه » .

قال الفاضل : أسعد الله المولى بهذه الرحلة الكريمة وأثابه الله عليها . ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، فما منهما إلا أعز محجل » .

وهما فى هذا الحديث ، إذ أتى من أخبرهما بموت الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين — مات ولم يبلغ بعد العشرين من عمره ، وبأن الأمراء فى نزاع شديد على ملكه : كل يريد أن ينتهز هذه الفرصة ويضع يده على قطعة من هذا الملك . فحزن السلطان لهذه الأخبار ورأى فى موت الفتى وتنازع الأمراء من بعده محنة جديدة من المحن التى لا بد له من التغلب عليها قبل أن يفكر جدياً فى محاربة الفرنج .

قال الفاضل : « لا يحزنك ذلك أيها المولى أطال الله بقاءك ، وجعل ملك هذا الفتى بعض إقطاعك ، حتى تستطيع جمع كلمة المسلمين ، ومحاربة القوم الظالمين. والله أعلم حيث يضع رسالته » .

ومضت أيام تأهب السلطان فى أثنائها للرحيل ، ثم خرج من مصر فى موكب ثقيل . اشترك فيه الجند والشعب على اختلاف طبقاته . وبينا القوم فى أفراحهم ، والسلطان يشاطرهم هذه الأفراح ، إذ بأحد المربين لأولاده أخرج رأسه من خيمته وقال :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبضت نفس السلطان ، وخمد نشاطه ونشاط صديقه القاضى الفاضل . وكأن المؤدب نطق بما هو كائن فى الغيب ، لأن السلطان لم يعد بعدها إلى مصر فقد تركها وغاب بالشام ليقضى الأعوام الطويلة الباقية له من حياته فى جهاد طويل يوحد به كلمة المسلمين ويجمع به شملهم قبل أن يواجه بهم العدو .

ثم وصل السلطان إلى دمشق ، وأشار عليه أصحابه بالإغارة على حلب ، فأبى عليهم ذلك بحجة أن الهدنة التى بينه وبينهم لما تنقض مدتها ، ولا يليق بشرفه هو أن يغير عليهم قبل انقضاء مدتها .

قال له أصحابه : « فإنهم قد هادنوا الفرنج ، ومالئوا عليك شيخ الجبل — زعيم الحشيشة — ليأخذوك على حين غرة . فأدهمهم قبل أن يدهموك ، وأشغلهم قبل أن يشغلوك ، وأفسد عليهم خطتهم قبل أن يفسدوا عليك خطتك » . .

فما ازداد السلطان إلا إلحاحاً فى إبائه واستمساكا بوفائه ، وقال لأصحابه : « إنى لأستحى من الله أن يرانى ناقضاً للعهد ، وإنى لأستحى من نفسى أن أكون كاذب الوعد ، وما النصر إلا من عند الله » .

ثم مضى أجل الصلح ، وأصبح السلطان فى حل من قتال القوم ، فرىأ قبل ذلك أن يبدأ بمكاتبة ملوك الاسلام جميعا بالوفود عليه , فمن جاء منهم مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه فى جهاد الكفر . فوفد عليه من رسل الملوك من قبلوا الدخول فى دعوته ، ورفض منهم من أبى الدخول فى طاعته . ثم ذهب السلطان بنفسه إلى بعض مدن الشام ففتحها ، ثم اتجهت همته لأخذ (حلب) فأخذها . وكم كان سرور الرجل عظيما بفتح (حلب) ذلك بأنها البلد الذى سبب له من التعب مالا يقل عما سببه له الفرنج . فلم يكد السلطان يظفر بها حتى علا قلعة من قلاعها ، وكأنما أتاه بها الهاتف الذى يختلف على آحاد من الناس — هم الرسل ومن هم فى منزلة الرسل — فيدعوهم بدعوة الله ، ويعدهم بالنصر من عند الله ، ويهيئهم لأمر من الأمور التى أرادها الله ، فيرى هؤلاء أنفسهم مدفوعين إلى تنفيذ هذه الارادة الإلهية . فذلك معنى قول السلطان وهو بأعلى هذا المكان :

و الله ما سرنى فتح مدينة كما سرنى فتح هذه المدينة . الآن تبينت أن أملك البلاد . والآن تبينت أنى أكسح الفرنج . » !

ونزل السلطان من القلعة فوجد الناس بالمدينة فرحين مسرورين . وفى هذه اللحظة التى كان يشهد فيها سرورهم أتاه نبأ وفاة أخيه الأصغر (تاج الملوك بورى) فحزن عليه كل الحزن ، وشق عليه فى الوقت نفسه أن يكدر من صفاء القوم ، فانتحى ناحية أخذ يبكى فيها على أخيه ، وأمر أصحابه ألا يعلنوا موته حتى يفرغ المسلمون لسرورهم . وذلك حتى أقبل على السلطان وفد من شعراء مصر وفيهم القاضى السعيد بن سناء الملك ، فوقف يهنىء السلطان بقصيدة أتى فى أولها :

بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب

ومنها فى وصف قلعة حلب وذكر تمنعها :

جليسة النجم فى أعلى مراتبه وطالما غاب عنها وهى لم تغب

وما نعته كمعشوق تمنعه أشهى من الشهد أو أحلى من الضرب
فتح الفتوح بلامين وصاحبه ملك الملوك ومولاها بلا كذب

وكان انتصار السلطان على (حلب) وهى الوكر الأول لبيت نور الدين، بشيرا بانتصاره على (الموصل) وهى الوكر الثانى لهذا البيت الأتابكى العظيم. إذ كان المواصلة كالحلبين من أعداء الملك الناصر صلاح الدين. وأتى الرجل لحصارهم فأخذوا يفاوضونه فى اعفائهم، وسلكوا فى ذلك طرقاً شتى: فرقة يبعثون اليه بنساء من بيت نور الدين يشفعن عنده فى تركهم آمنين بالمدينة، فيكرمهن صلاح الدين ويلقاهن لقاء جميلا ويعتذر إليهن فى لطف ورفق. وأخرى يسمعون بمرضه، ويعلمون أن المرض يرقق من مشاعره ويرهف من حسه، وأنه فى المرض ألطف منه فى الصحة بكثير، فيبعثون اليه برجل عظيم من فقهائهم، وسياسى أريب من أخطر ساستهم — هو بهاء الدين بن شداد — وكان منهم يومئذ بمنزلة توشك أن تكون كمنزلة القاضى الفاضل من السلطان نفسه. فيأتى هذا الفقيه الجليل على رأس وفد كبير لمفاوضة صلاح الدين، فيكرم السلطان وفادته ويعرض عليه مكاناً رفيعاً فى دولته، فيأبى الفقيه ذلك بحجة أنه مندوب عن صاحبه أمير الموصل، فيوافقه السلطان على ذلك ويقره عليه. ثم لا يجد أعضاء الوفد الموصلى بدأ من توقيع شروط الصلح، وهى شروط أملاها عليهم السلطان، وبها أصبح سيداً أكبر على الجزء الشمالى كله من الأمبراطورية الاسلامية.

ثم اتجه السلطان الى الاجزاء الجنوبية من هذه الإمبراطورية ولم يكن منها خارجاعن طاعته غير أقليم واحد كان يفصل مصر عن الشام وهو اقليم (الكرك)، وأميره أرناط. وفى ذلك المكان اجتمعت عساكر الإسلام، ودافع الفرنج عن هذه المنطقة دفاعا لم يغن شيئاً أمام جموع المسلمين الذين فتحوا بلادهم، وبلاداً غير بلادهم، وبذلك أصبح السلطان سيداً أكبر على الجزء الجنوبى كله من الأراضى الإسلامية.

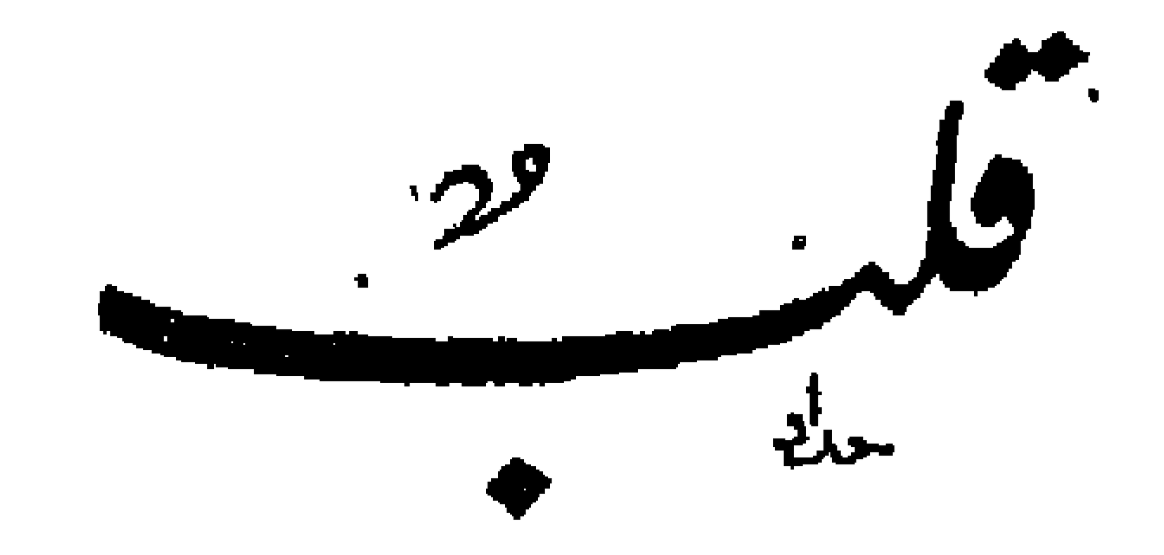
وجلس السلطان يستريح ، فأتى الشعراء لتهنئته وفيهم الشاعر المصرى الذى مر ذكره وهو القاضى السعيد ابن سناء الملك . فأنشد السلطان قصيدة وصف فيها (الكرك) بأنها عوقبت بالعقوبة التى نص عليها القرآن الكريم وهى عقوبة الرجم بالحجارة ، لأنها بلدة مسلمة رضيت أن تكون تحت رجل غير مسلم ، قال :

هى الكرك الشكلى بأولادها انتهت عن النسل مما جرعته من الثكل
غدا بعلها (الإبرنس)(١) يلعن عرسه بها وهى لاتنفك من لعنة البعل
وقد رجمتها المنجنيقات إذ زنت هناك بشيخ كافر جاهل رذل

ثم لم يمض زمن طويل على هذه الفتوح ، حتى وصل إلى السلطان نبأ وفاة صاحب (أرمينية) . مات ولم يترك بعده ولداً ولا ذا قرابة ، فكتب أهل البلاد إلى السلطان يخطبونه لها . فما أسرع ماخف السلطان لأخذها ، ثم ما أسرع ما كتب للخليفة فى بغداد يطلب اليه تقليداً عاما بها وبالموصل وحلب وديار بكر . فجاءه التقليد من الخليفة بالموافقة على كل ذلك .

ونظر السلطان فاذا ملكه ممتد من برقة وماحولها من ناحية الغرب ، ومن اليمن وبلاد النوبة من ناحية الجنوب ، ومن ديار بكر والجزيرة وأرمينية من ناحيتى الشمال والشرق . ونظر أيضاً فاذا هو قد فرغ من جميع أعدائه بالشام ، واذا هو وحد فى قبضة يده جميع بلاد الإسلام ، وإذا الوقت قد حان ليحصل لنفسه ودينه وشرفه وشرف المسلمين معه فى مشارق الأرض ومغاربها على أمل طال فى انتظاره رجاؤهم ، وتحرقت للظفر به نفوسهم ، ومن أجله كان التفافهم حول أبطالهم وزعمائهم من لدن عماد الدين وابنه نور الدين إلى أن أتى صلاح الدين ، وهو البطل الذى شرفه القدر بذلك الظفر الذى لا يعرف التاريخ الإسلامى ، منذ الفتوح الإسلامية الأولى ، أعلى شأناً ولا أمجد ذكراً ولا أعظم أثراً منه .

(١) يريد أرناط وهو من يعنيه فى البيت الثالث



لم يكد يشيع عن صلاح الدين أنه هزم جموع الصليبيين فى (حطين) ، وأنه فى الطريق إلى القدس ، حتى قصده العلماء والفضلاء والكتاب والشعراء والمتصوفة والوجوه فى مصر وغير مصر ، بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور ليشهد بنفسه موطناً قيل فيه يومئذ ، ان الايمان كله برز للشرك كله .

والسلطان فى خيمته ذات صباح ، إذ برسالة ترد اليه من سيدة مسيحية — هى زوج صاحب طبرية — عرفت من أنباء حطين ماجعلها تؤمن بأنها واقعة فى أسر صلاح الدين ، مالم تطلب اليه هو أن يؤمنها . فلما قرأ السلطان رسالتها ، بعث اليها من يطمئنها ، فخرجت السيدة من قلعتها ، وأبلغها الرسول مأمنها معززة مكرمة . ثم ذهب السلطان بنفسه إلى هذه القلعة فتسلمها ، ثم رأى أن يصير بجيشه إلى عكا فصار اليها وحاصرها ، غيرأن أهلها رأوا أن يطلبوا اليه الأمان ، فخيرهم السلطان يومئذ بين اثنتين : فاما الاقامة فى أماكنهم على أن يدفعوا الجزية التى يفرضها عليهم واما أن يرحلوا عن بلدهم ليدخلها السلطان ، فاختاروا الرحيل ، ودخل المسلمون البلد بين تكبير وتهليل ، وصلوا صلاة الجمعة فى مسجد كان الفرنج قد اتخذوه كنيسة لهم .

ومنذ ذلك اليوم وحصون الفرنج تقع تباعا فى يد صلاح الدين ، وينفرط عقدها حبات يتلقطها ويزين بها تاجه العظيم ، ويعود إلى مرج عكا حيث يدبر الخطط التى يسير عليها فى هذه الحرب .

ودخل عليه القاضى الفاضل ومعه القاضى بهاء الدين بن شداد فيمن دخلوا

عليه ذات يوم . فكرر الجميع تهانيهم للسلطان ، وخاض الجميع فى حديث معه عن الحرب وسياسته والحرب ، وآخر فى الجهاد وفضائل الجهاد . أما ابن شداد فقد نفذ إلى قلب السلطان يومئذ عن هذا الطريق الأخير . فقال :

« يامولانا . هجرت فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهلك وولدك ووطنك وسكنك ، وقنعت من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب الرياح بها ميمنه وميسرة و . . . »

قال القاضى الفاضل « ولقد وقعت عليه الخيمة فى الليلة الماضية وكانت ليلة ريحية قاسية ، ونحن هنا على مرج عكا ، فلو لم يكن — وقاه الله تعالى السوء — فى البرج لقتلته ، ثم لايزيده ذلك كله إلا رغبة فى الجهاد ومحبة لأسبابه وصبراً على متاعبه . »

قال السلطان « كل ميسر لما خلق له ، بارك الله فيكما أيها القاضيان ، الكما فى وقفه معى على الساحل ، نستجم بها بعد كد ، ونستروح فيها بعد تعب ؟ »

فذهب السلطان تجاه البحر ، ووقف الفاضل عن يمينه ، وابن شداد عن يساره ، وسبح الثلاثة فى تأملاتهم ، وغرقوا فى أفكارهم . حكى ابن شداد عن نفسه قال « وكانت الريح شديدة والبحر هائجا ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى حتى خيل إلى أنه لو قال لى السلطان : إن جزت فى البحر ميلا واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل ، واستسخفت رأى من ركب البحر رجاء دينار أو درهم ، واستحسنت رأى من لايقبل سهاده راكب البحر . وهذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شهدته من حركة البحر ، فى موج الجبال كما قال الله تعالى فى كتابه . فبينا أنا فى ذلك اذ التفت السلطان الينا وقال :

« أيها القاضيان — أما احكى لكما شيئا فى نفسى ؟ »

قلنا « قل أيها المولى » .

قال « انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت البحر الى جزائره ، وتعقبت الفرنج فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ! » فوقع كلام السلطان وقعا غريبا من نفس القاضي بن شداد ، حيث ناقض ما كان يدور فى خلده . واتجه للسلطان وقال :

ليس فى الأرض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى منه ثقة فى نصرة دين الله ! »

ثم استأذن السلطان فى أن يحكى له ما كان خطر له فحكاه له ، فضحك السلطان وضحك معه القاضى الفاضل ، واستمرا فى ضحكهما وقتا طويلا حتى قطع ابن شداد عليهما هذا الضحك وقال : « من أجل ذلك أيها السلطان ، جمعت لك كتابا فى الجهاد : أتيت فيه بآدابه ، وذكرت فيه كل آية وردت فى ثوابه ، وكل حديث روى فى هذا المعنى . »

قال السلطان فى لهفة غريبة « احق مايقول القاضى ؟ على اذن بهذا الكتاب ، فانك ان أردت أن تتقرب الينا ، وان تكون أثيراً لدينا ، فاطلع علينا بهذا الكتاب الذى جمعته ، فلعلنا نقرأ فيه قبل أن نرحل غداً إلى عسقلان ! »

قال القاضى الفاضل : « نعم عسقلان . فلم يبق علينا غيرها وغير مدينة صور ، وبفتح عسقلان نستطيع يامولاى أن نصل الى باب القدس . وبفتح مدينة صور نستطيع كذلك أن نطهر البلاد الاسلامية كلها من هذا الرجس . »

قال السلطان « علينا إذن بعسقلان ، فاذا فرغنا منها شغلنا الجند بعدها ببلاد أخرى يسهل عليهم فتحها ، فاذا أسكرهم الفوز بفتحها ، فانا نوجههم بعدها الى مدينة صور » قال القاضى الفاضل « مولاى يركب خطأ يترك صور طول هذه المدة . فانه ان تركها ، اجتمعت فلول الفرنج بها ، وتكونت لهم بالمدينة

وحدة ضيقة لها خطرها . فليأخذ المولى حذره من هذه الناحية ! » قال السلطان صدقت ياعبد الرحيم . ولكن ما الحيلة فى ذلك والجند كما ترى أنهكهم التعب أخذهم النصب . والخيل قد تعبت كذلك من عرك اللجم » .

قال القاضى الفاضل « المولى وما يراه فى ذلك »

وهما فى هذا الحديث إذ أقبل عليهما من أخبر أن الفرنج يشتغلون فى صور بتجديد أسوارها واقامة أبراجها وحفر خندق حولها ، وأنهم يعملون فى ذلك بهمة لا تعرف الكلل ، وأن الذى يقودهم فى هذه الحركة الخطيرة أمير مسيحى قدم عليهم من القسطنطينية ، واسم هذا الامير كنراد .

قال السلطان الملك الناصر « هذا كلامك عبد الرحيم » .

قال القاضى الفاضل « ومع ذلك فان لهذا الأمير الذى قدم عليهما ابا شيخا هو أسير عندنا بدمشق . فمر من يأتى به ، وأعرض على هـذا الأمير أن تفك أسر أبيه ان هو كف عن العمل فى إقامة السور » فأتى السلطان بالأسير الشيخ وراود به كنراد أن يفك أسره انه هو عاد عن قصده . ولكن الأمير المسيحى رفع الصليب فى وجه السلطان وقال :

« بحق المسيح ، وحق الصليب ، لانزلت عن حجر واحد فى هذا السور . أما أبى هذا فقد بلغ من العمر أرذله فحسبه ما عاش . فان شاء السلطان قتله ، وان شاء أطلقه » .

فلما يئس السلطان منه تركه وعاد الى عسقلان واستمر على حصارها أربعة عشر يوما تمكن فى نهايتها من أن يستولى عليها ، وبذلك انفتح الطريق أمامه الى القدس . !

هنا طافت بقلب هذا القائد العظيم ذكريات قديمة كريمة عليه وعلى المسلمين . كان من أجلها فى ذلك الوقت ذكرى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

فهو الفاتح الأول للقدس ، وصلاح الدين بن أيوب هو الفاتح الثانى له .

وكان جلال هذه الذكرى قد وقف فى أول الأمر سداً منيعا يحول بين السلطان وبين هجومها عليه لأخذها دفعة واحدة . فبعث الى أهله يقول لهم :

« اعلموا أننا نحن المسلمين نقدس هذا البلد كما تقدسون ، ولسنا نرغب فى أن نتعرض له أو لاهله بسوء — فان شئتم سالمتم فسلمتم ، والا فبرغمى أن أحاربكم فى هذه الارض المباركة » . وتوالت الرسل بين الفريقين . غير أن الفرنج كبر عليهم التسليم فتحرك نحوهم السلطان بجيشه ، وطاف حول أسوارهم خمسة أيام كاملة وصل فى نهايتها الى الجهة التى اقتحم منها البلد . فدهمهم فى داخل مدينتهم « وهم يرون أن بذل نفوسهم وأموالهم وأولادهم بعض ما يجب عليهم لحفظها » . ولما استيقن الفرنج الهلكة إن هم مضوا فى المقاومة استقر رأيهم على طلب الصلح ، واختاروا للمفاوضة عنهم باليان وهو صاحب الرملة ، أو هو الرجل الذى أطلقه السلطان يوم حطين على عدة منه وعدها اياه ، فلما ابتعد عن السلطان خفر بعهده ونسى وعده ، ومع هذا فقد لقيه السلطان أحسن لقاء .

ولما سأله الرجل عن شروط الصلح أجابه السلطان بقوله : «هل لمدينة وقعت فى الاسر أن تطلب شرطا ؟» فقال باليان :

« أيها السلطان . اعلم أن فى هذه المدينة مالا تعلمه أنت ولا قومك . يكرهون الموت ويحبون الحياة . فاذا لم يجدوا من الموت بداً قتلوا أبناءهم ونساءهم ، وحرقوا أموالهم ومتاعهم ، وهان عليهم ذلك عن أن تغنموا منهم ديناراً أو درهما »

وأخيراً أسفرت هذه المفاوضة التى دخل فيها السلطان على أن يعرض على بليان أن يسمح لهم بالرحيل عن المدينة فى مدة لاتزيد على أربعين يوما ، وعلى

أن يدفع الرجل منهم عن نفسه عشرة دنانير ، والمرأة خمسة والولد دينارين وإلا فهو أسير .

وها هو السلطان الكريم يأبى عليه قلبه العظيم أن يشهد بنفسه القوم يغادرون بلادهم ، ويودعون ديارهم ، ويقبلون الأماكن المقدسة توديعاً لا لقاء بعده . فعل السلطان ذلك كيلا يؤذى كرامتهم أو يجرح عزتهم أو يروا فيه شامتاً فى مصيبتهم التى حلت بهم بترك القدس .

وهذا أخوه الملك العادل يطلب منه اعفاء سبعة آلاف من العجزة والمساكين فيتقدم السلطان باعفائهم واعفاء عشرة آلاف أخرى من فقراء المسيحيين . بل أن من المؤرخين الأوروبيين من قال :

« إن السلطان قضى يوما كاملا من مطلع الشمس إلى مغربها وعلى بابه من ينادى : هل من فقير فنأويه ، هل من عاجز فنعفيه من فدية يؤوده دفعها ويعجزه الحصول عليها » .

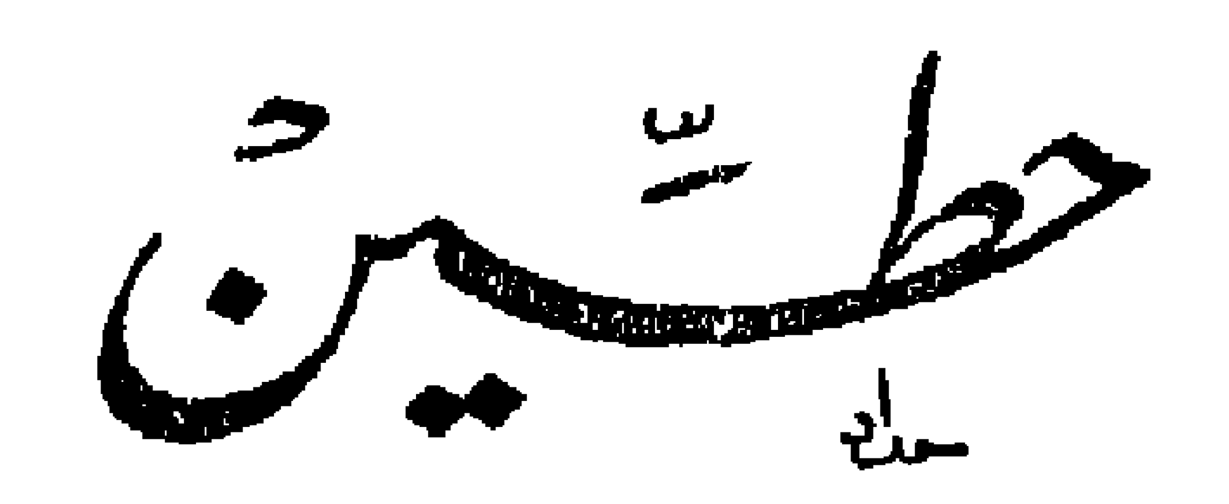
وهذا فوج كبير من الفرنج ، منهم من يحمل أبويه الضعيفين ، ومنهم من يحمل أخوته المرضى أو المصابين ، فيبكى السلطان بكاء الحزين ويأمر أن ترد لهم الفدية ، وأن يؤتى بالدواب لهم ليركبوا عليها هم وهؤلاء العجزة .

ثم هذه امرأة قد أسنت وبدت عليها أمارات النبل والتدين ، تمشى الهوينا وتستعين على السير بخدم يرعونها ويحملون لها المال الذى تملكه فى هذا البلد الغريب . يراها السلطان من بعيد فيأمر بمن يدركها ويعرض عليها خدمات السلطان الذى تطوع بها .

ثم ذلك هو البطريق الكبير ، وهو خارج بمال كثير ، لم ينفق منه شيئاً فى افتداء يتيم أو مسكين أو فقير . يراه المسلمون فيشيرون على السلطان بأخذ ماله والانتفاع به فيما يعود بالخير على جيوش الإسلامية . فيقول السلطان لهم .

« لا — ما كان لنا من حق فى ماله الا العشرة الدنانير ، وغيرى من يغنم المال عن طريق الغدر . دعوه يخرج به » . وللمؤرخين الأوروبيين تعليق على هذا الموقف اذ يقولون « هكذا وصل الأمر بالفرنج الى حد أن سلطاناً مسلماً يلقى درساً فى المروءة على راهب نصرانى ! »

وخرج المسيحيون الهاربون من القدس والتجأ بعضهم إلى بلاد أخرى بعيدة كانطاكية وطرابلس، فطردهم منها أمراؤها ، وأغلقوا دونهم أبوابها ، ثم لم يكفهم ذلك حتى بعثوا وراءهم بمن نهبهم وأخذ متاعهم ، فهام هؤلاء على وجوههم وسط الصحراء « حتى لقد اضطرت سيدة معهم أن تلقى بولدها فى اليم . وهى لاتنفك تلعن هؤلاء المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها وينقذوها وينقذوا معها ابنها » .



أسطورة من الاساطير الفرنسية حول موضوع الحروب الصليبية بعنوان (أغانى شاعر ريمس) : « أن سيدة مسيحية تدعى (سيبلا) **Sybylla** توجت زوجها ملكا على بيت المقدس . والملك على تلك الجهة من بلاد الصليبيين يجب أن يعترف به ملكا فى المشرق على جميع الأمراء المسيحيين . غير أن هذا العمل لم يصادف هوى من الأمراء الأقدمين فى فلسطين ، فأتى أحدهم وهو (ريموند) **Raymond** صاحب طرابلس واجتمع بكثيرين منهم ودبر الجميع أمرهم بليل.

واتفق الأمراء المتآمرون على أن يجتمعوا لذلك سراً بصلاح الدين ، فاجتمعوا به واقترحوا عليه أن يسلموا البلاد اليه ، بحجة أن ملكهم الجديد رجل مدخول القلب سىء النية ، وأنه فوق هذا كله ضعيف لايستطيع المحافظة على بيت المقدس.

وزعم لنا الشاعر الفرنسى الذى ألف هذه الأساطير أن السلطان رحب بأولئك الأمراء الخونة الثائرين ، ووعدهم جوائز سمينة يستحقونها متى تم له ولهم نجاح هذه المؤامرة . . غير أن أولئك المتآمرين رأوا ألا يغادروا السلطان حتى تستوثقوا من مساعدته لهم فيما اجتمعوا له ، فسأله زعيمهم ريموند قائلا له : قل لنا أيها السلطان العظيم : ما الضمان الذى تحتاج اليه حتى تثق بهذا الحلف الذى عقدناه بيننا الآن ؟ » قال صلاح الدين « والذى نفسى ونفس محمد بيده الك لتقول الحق . فعلينا جميعاً أن نقسم بدياناتنا ونؤكد بوثقنا بأن يجرح كل منا نفسه ويسق الآخر شيئاً من دمه . »

فنعل الجميع ذلك وتمت بهذا خطة المؤامرة .

فلما كانت الحرب ، ووقعت الموقعة الكبرى بين الفريقين ، صاح السلطان بأعلى صوته وسط المعركة وقال : أى أمير طرابلس . اليوم تبر بقسمك !

فأسقط الأمير الخائن رايته على الفور ، وفعل الخونة الآخرون من المتآمرين مثله أيضاً ، ودارت الدائرة على الصليب ، وسيق ملك القدس ومعه فرسانه وأبطال جيشه اسرى الى خيمة صلاح الدين

قال الشاعر الفرنسى : غير أن السلطان العظيم عاد فاحتقر الخيانة والخائنين ، وأثرت فى نفسه الحال السيئة التى وصل اليها ملك بيت المقدس . ورأى فيه رجلا شجاعا خذله قومه وغدرت به عشيرته ، فأمر باطلاق سراحه وسراح عشرين رجلا من خيرة فرسانه مجهزين جميعاً بالعدد والذخيرة . وردهم جميعاً إلى الساحل . أما ريموند وأتباعه من أعضاء هذه المؤامرة فقد أسرهم صلاح الدين وعذبهم عقاباً لهم على فعلتهم ، وأراد أن يلقى عليهم بذلك درساً قاسيافى أمانة الجندى !

لهذه الأسطورة الفرنسية أصل فى تاريخ الحروب الصليبية . فقد توفى الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وأقيم مكانه بلدوين الخامس هو ابن هذه السيدة الكبيرة التى تدعى (سبيلا) . وكان هذا الملك الاخير طفلا فكفله ريموند صاحب طرابلس ، وأبرم باسمه مع السلطان صلحا مدته أربعة أعوام . ثم مات الملك الغلام وبقى ريموند مكانه حتى اقترنت (سبيلا) بزوج أخر توجته ملكاً على القدس ، وكانت حاشية هذا الاميرلاتحب ريموند ، فتركهم وعاد إلى طرابلس . واستمرت العداوة بينه وبين ملك القدس ، وزادت هوة الخلاف بينهما ، حتى لقد استعان ريموند على غريمه بصلاح الدين ، فرحب السلطان بذلك ، وان كان قد رفض محاربة الفرنج معه حتى ينقضى أمد الصلح .

واجتمع أمراء الفرنج برياسة ملك القدس . وكان فيهم أخو الملك نفسه وهو (ارناط) صاحب الكرك . وبسط الامراء الموقف فكان من رأى الملك أنه

لا تنبغى محاربة السلطان قبل انتهاء الهدنة . وكان من رأى ارناط انه لا بد من الحرب ومن فسخ الهدنة . ووقع الخلاف بينهم فى الرأى على هذا النحو كل ذلك والسلطان نفسه لا يفكر فى الحرب ، أو ينتظر انتهاء الصلح بفارغ الصبر . وبقى على حالته هذه حتى نما اليه أن ارناط عبث بالصلح وانتوى الغدر ، وظهر هذا الغدر منه حين مرت بالكرك قافلة من قوافل المسلمين عائدة من الحج ، فانقض على رجالها وحبس كثيراً من نسائها ، واستولى على جميع أموالها . ثم لم يكفه كل ذلك حتى أخذ يطعن المسلمين فى دينهم ، ويصيبهم فى موضع الكرامة والعزة من نفوسهم فقال لهم : أين محمدكم . أدعوه الآن ليفك اسركم ، ويخلصكم من هذه اليد : ثم اتبع ذلك بما شاءت له أخلاقه من ألفاظ الهزء والسخرية .

وبلغ هذا كله مسامع السلطان ، فثارت حميته ، وهاج هائجه ، وغلا مرجل دمه ، وآلى على نفسه يومئذ لئن أظفره الله بأرناط ليقتلنه بيده . !

ثم رجع السلطان إلى جيشه ينظمه ، والى جنده يحمسهم ، وكان مما قاله يومئذ للجند : غداً تدافعون عن الدين ، وغداً تنتقمون معى لأشرف المرسلين ، وغداً تكونون ممن قال الله تعالى فيهم « فأتاهم حسن ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة :

ثم ما كاد الصلح ينتهى أمده حتى أعلن السلطان كلمة الجهاد ونادى بالنفير العام.

وكان الفصل صيفاً والشمس محرقة وذلك فى يوم من أيام يوليو التى لا قبل للفرنج باحتمال حرها الشديد . وكان من خطتهم — لسوء طالعهم — أن يبدأوا هم بالهجوم على بعض البلاد المجاورة التى فتحها صلاح الدين . وكان قصدهم من ذلك — كما أوحى لهم ارناط بذلك — أن يسبقوا المسلمين الى الاستيلاء على العيون ، ليشربوا فى يوم حار كهذا ويظمأ جيش المسلمين . فما كادوا يتقدمون بفرسانهم ، إلى البلاد التى أرادوا انقاذها برماحهم ، حتى وجدوا المسلمين قد

أحرقوا هذه البلاد وحالوا بينهم وبين الماء، فاشتد لذلك عطشهم، وجفت إذاك ألسنتهم، وسلطت الشمس على رؤوسهم، فكان حرها أشد على نفوسهم من جيوش المسلمين، وظلوا على حالتهم هذه حتى أقبل الليل. !

كل ذلك وجيوش المسلمين فى الأماكن التى عينها لهم السلطان، لم يأمرهم بعد بالهجوم على العدو. فلما أصبح الصباح وتقدم النهار واحمارت الشمس، لم يشعر المسلمون إلا وقطعة من جيش العدو بقيادة رايموند صاحب طرابلس، قد فرت من الميدان، ونجت بنفسها من سيف السلطان، وأتى رجل منهم إلى خيمته يقول له :

« أيها السلطان العظيم ما الذى يدعوك الى التأخر فى الهجوم؟ إنهض الآن اليهم، وانقض بجيوشك عليهم، فانهم أصبحوا بحال من التعب والظمأ لا يأملون معها فى النجاة »

فزحف السلطان بجيشه العظيم، فتقهقر الفرنج وانسحبوا الى تلال حطين — وهى قرية صغيرة يقال ان عندها قبر النبى شعيب. وأرادوا نصب خيامهم فلم يمكنهم المسلمون من ذلك. ثم بشيء من العسر غير قليل استطاعوا أن ينصبوا للملك خيمة اجتمعوا حولها ورفعوا (صليب الصلبوت) فوقها — وهى خشبة زعموا أن المسيح صلب عليها، فغلفوها لذلك بالذهب الاحمر، وكللوها بالدر والجوهر، وجعلوها رايتهم الكبرى فى ميادين الحرب.

ثم هجم المسلمون على خيمة الملك فاستبسل الفرنج فى الدفاع عنها. ثم ما لبثوا أن خارت قوتهم، وتداعت خيمتهم، وأسر مليكهم، وسقط صليبهم، وكان أخذ هذا الصليب أشق على نفوسهم من أسر الملك نفسه.

وحكى بعض من شهدوا هذه الموقعة أن الرجل الواحد من المسلمين كان يستطيع بحبل خيمة أن يجر وراءه من الاسرى نيفا وثلاثين — لا يمنعونه ولا يقاومونه لشدة خذلانهم فى ذلك اليوم !

وما كاد هذا الظفر العظيم يتم لصلاح الدين ، وكان ذلك ليلة السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة خمسمائة وثلاث وثمانين ، حتى انطلقت أصوات المسلمين بالدعاء والتهليل ، وتصايح الجنود اجمعون : الله أكبر ! الله أكبر ! : والناس مشتغلون بتهليلهم وتكبيرهم ، والسلطان فى سجوده ، غارق فى دموعه ، سابح فى مثل ما يسبح فيه المتصوفة فى ساعة من ساعات غيبوبتهم عن العالم المادى .

وأفاق السلطان فاذا فى أسره من رؤوس الصليبيين: ملك القدس وهو (جودفرى) زوج (سيبلا) ، وأرناط وهو (رينولد) أخو الملك ، ورئيس الدوابة ، ورئيس الاسبتارية ، وصاحب الرملة ، وصاحب حصن جبيل ، وابن صاحب طبرية ، وكثيرون غيرهم من ملوك الفرنج وكبارهم وأصحاب الكلمة النافذة فيهم .

فأما زعيما الدوابة والاسبتارية ، وهما فى رأى السلطان جرثومة الكفر فى بلاد اسلامية ، فقد اختار السلطان قتلهما فقتلا من وقتهما . وأنكر المؤرخون الاوروبيون على السلطان هذه الفعله . ووصفوها فى كتاباتهم بأنها (النقطة الوحيدة السوداء فى تاريخ ناصع أبيض » .

وأما (ارناط) فقد أوقفه السلطان الى جانب أخيه الملك وكان اليوم حاراً ، والفرنج أنفسهم قد فرحوا اذ وقعوا فى أسر المسلمين حتى يمكنوهم من الشرب . فأمر السلطان بقدح من شراب جلاب بثلج ، وأعطاه بيده إلى الملك فشرب منها ، ثم ناول الملك بعضها أخاه ارناط . فقال السلطان للترجمان :

« قل للملك : أنت الذى تسقى أخاك ، والا أنا ما سقيته » ! وكان على جميل عادة العرب وكريم طباعهم أن الاسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن على نفسه . فدل السلطان بكلمته هذه على أنه أمن الملك إذ سقاه ، ولكنه لم يؤمن

أخاه أرناط إذ لم يسقه . ثم أمر السلطان الخدم فأقعدوا الملك فى الدهليز ، ثم أمرهم فأتوا له (بارناط) فذكره السلطان بتلك العبارات التى سب فيها النبى وقال له :

« ها أنذا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » ثم عرض عليه الاسلام فلم يقبل فسل السلطان سيفه وضربه به على كتفه فحله ، وتمم عليه من حضر من الخدم ، ثم أخذ ورمى به على باب الخيمة . .

فلما رأى الملك أخاه على تلك الصورة المرعبة ، لم يشك فى أنه يثنى به لساعته ، فاستحضره السلطان وطيب قلبه وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . وأما هذا فانه جاوز حده ، وسب نبينا فنذرنا لئن أظفرنا الله به لنقتلنه ، فجرى ماجرى ».

وكان القاضى الفاضل غائباً عن وقعة (حطين) . فلما بلغته أخبارها كتب الى السلطان رسالة جاء فيها :

« كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس الى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها . وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهى مساجد ، والمكان الذى يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه إنه الواحد ، جدد لله شكراً ، تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه ، فتمد جزاه يوسف خيراً باخراجه من سجنه .. تلك المكارم لاقعبان من لبن ، وذلك الفتح لاعمان واليمن ، وذلك السيف لاسيف ابن ذى يزن . والألسنة بعد فى هذا الفتح شرح طويل وقول جليل » .

حصار

ظفرت أيها السلطان بالقدس فاعمل فى عمارته واحفر خندقه واعمل فيه بيدك، وانقل الحجارة والتراب على كتفك، وليعمل معك أبناؤك وأجنادك وقضاتك وولاتك، وعلماؤك وأمراؤك، ولتفرغ من خندقك على عجل، فان أمامك أن تملك الساحل كله، وأن تفتح أمنع حصن من حصونه وهو (عكا)، وذلك قبل أن يأتى أعداءك المدد من أوروبا فيومئذ قد لا تستطيع أن تملك الساحل ولا الحصن .

وصمم السلطان على هذا الرأى واتجه نحو الساحل، وملك فى طريقه حصوناً كثيرة أغنت فيها هيبته الشخصية عن قوته العسكرية، فكان لا يكاد يقف بنفسه أمام الحصن حتى يسلم له صاحبه فلا تطول المعركة .

وفى حصن من هذه الحصون التى كانت فى الطريق، واسمه حصن (برزية) أسر السلطان صاحب الحصن ومع زوجته وبناته، وفيهن ابنة كانت عروسا قد حيل بينها وبين زوجها فى الموقعة، فأمر السلطان من أتى له بهذا الزوج، وما أتى الليل إلا وكانت عروسه معه .

ثم وقف السلطان أمام حصن عكا، فقاتل الفرنج دونه أعنف قتال وأفظعه ولكنه مع ذلك سقط فى يد السلطان لساعته، وكان المسلمون من جانبهم قد بذلوا فيه جهداً عظيما، واستشهد فى الموقعة أخ الفقيه عيسى الهكارى، فشهده الناس وهو جالس يضحك والناس يعزونه، وهو ينكر عليهم ذلك ويقول : هذا يوم الهناء لا يوم العزاء . ! !

وجلس السلطان بعد الموقعة فى خيمته ، ومعه القاضى ابن شداد وإذا بامرأة من نساء الفرنج قد وقفت على خيمته ، وبكت بكاء شديداً وهى تمرغ وجهها فى التراب وتستغيث ، فأمر السلطان من أتى بها ، وعرف من قصتها أنها فقدت فى الليلة السابقة رضيعاً له من العمر ثلاثة أشهر . وكان ملوك الفرنج لما علموا بأمرها عرضوا عليها أن تذهب إلى السلطان بنفسها ، فأتته فرق قلبه لها ، ودمعت عيناه لمنظرها ، وأمر باحضار رضيعها ، فوجدوه قد بيع فى السوق ، فارتده ودفع ثمنه ، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل ، وسلمه بيده إلى أمه التى ضمته وأرضعته ، وبعد ساعة أمر لها بفرس فركبته ولحقت بعسكر الفرنج .

ثم ترك السلطان عكا بعد أن ولى عليها من قبله الأمير بهاء الدين قراقوش ، وترك معه نخبة صالحة من صفوة جنده ، وذهب هو لامتلاك بقية الساحل .

غير أن الفرنج المجتمعين وقتئذ فى مدينة (صور) بدا لهم أن يتحدوا ويقوموا جميعاً بحصار (عكا) لا لشىء إلا لإزعاجها ريثما يأتيهم المدد من أوروبا بقيادة ملوكهم ، أوريثما ينجح القساوسة فى أثارة هؤلاء وتحريكهم لتخليص القدس فتحرك الفرنج من (صور) ووقفوا تجاه (عكا) وضربوا عليها الحصار الشديد غير أن العجيب فى حصارهم هذا أنه دام أ كثر من عامين ذاق الفريقان فيهما صنوفا كثيرة من الويل ، . . وانتهى بهما الأمر أخيراً إلى نوع من الملل أو السأم ، ثم أدى بهما الملل والسأم إلى نوع من الصداقة كله عجب ، فكان الفريقان يتركان القتال ، ويفرغان أحياناً الى اللهو والمزاح ، ثم لا يلبثان أن يعودا إلى القتال بعد ساعة كأن لم يمزحا من قبل .

وطالت معاشرة الفريقين على هذه الحال حتى قال بعض المقاتلة المسلمين لبعض المقاتلة المسيحيين على سبيل المداعبة والمزاح : إلى كم نتقاتل نحن الكبار وليس للصغار من هذا القتال حظ ، نريد أن يتصارع صبيان منا وصبيان منكم

فوافق الفرنج على هذا اللهو . وخرج الصبية الأربعة ، واشتدت بينهم المصارعة حتى وثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الفرنجيين ، فجذبه جذباً شديداً وضرب به الأرض ، ثم قبض عليه أسيراً وضحك القوم . وانتهى الأمر بأن اشترى بعض الفرنج أسيرهم بدينارين ، فأخذ الصبي المسلم الدينارين وأطلق الفرنجي .

غير أن هذا المزاح الحلو أو المر كان أشبه شيء بضحك الرجل الذى أثقله الهم أو الحزن فقد بلغ السأم والكدر ، والجهد والنصب ، من الفريقين حداً لم يبلغه من قبل كل ذلك والمسلمون المحصورون بعكا تسوء حالهم يوماً بعد يوم ، حتى أصبحوا ولاحيلة لهم إلا البريد يحملونه همهم ، ويبثونه حزنهم ، ويستغيثون فيه بنجدةالسلطان ومراحم السلطان ، والسلطان فى خيمته يقرأ أخبارهم والدمع ينهمر من عينه ، والأسى يملأ قلبه ، والهم يهدم جسمه ، وأصحابه من حوله يعزونه ويسلونه وهو لا يقبل السلو . !

لقد أصبح على السلطان أن ينظم المراكب الضخمة تحمل القوت لهؤلاء القوم الذين أشرفوا على الموت . كما أصبح عليه ألا يهمل إيفاد الرسل اليهم لتقوية الروح المعنوية فى نفوسهم ، حتى لا تحدثهم بالتسليم للعدو . وذلك ماقد فعله منذ ذلك اليوم .

فمرة يصل المسلمون فى مراكبهم إلى عكا فى زى الفرنج خدعة ، وأخرى يقتتل الفريقان من المسلمين والمسيحيين على الميرة فلا تصل الى المدينة الا عنوة وفى ثالثه تعصف الرياح بالسفن الاسلامية فتغرق كلها بما تحمله من طعام لأولئك المساكين المحصورين . ثم لم يكتف المسلمون بكل ذلك حتى تطوعت فرق منهم لاجتياز البحر الى المدينة سبحا تحت سفوح السفن ، ليشهدوا بأنفسهم حال اخوانهم المحصورين فى هذه المدينة البائسة . وكان من أشجع هؤلاء العوامين رجل منهم اسمه (العوام عيسى .

ونظر المسلمون يوما فاذا العدو قد صنع ثلاثة أبراج من حديد وخشب ، وألبس الأبراج جلوداً منقوعة في الخل حتى لا تنفذ النار فيها بزعمه . وكان كل برج منها من الضخامة كأنه الجبل ، وكان يسع أكثر من خمسمائة نفر ، وكان ذلك كله قد راع المسلمين واودع في قلوبهم الخوف والهلع . فجمع السلطان علماءه وصناعه ، وعمل الجميع فكرهم فى طريقة لاحراق هذه الأبراج قبل أن أن تقتحم البلد . وانهم لفى ذلك حتى أقبل عليهم فتى دمشقى قال انه اهتدى الى طريقة ناجحة . فأمر السلطان بمن أحضر له ما أراد من المواد ، فطبخها الفتى مع النفط وجعلها فى قدور من نحاس ، ورمى بها برجاً فاحترق لساعته فابتهج المسلمون وهللوا وغمرهم الفرح . ثم رمى الفتى برجاً آخر فاشتعل فعلا تهليل المسلمين وصياحهم ، ثم رمى البرج الثالث فالتهب فغشى الناس من السرور ما أذهل عقولهم . وأقبل السلطان والناس معه على الفتى ، وأراد السلطان أن يمنحه الجائزة التى يستحقها على هذا العمل فاعتذر عن قبولها وقال : يامولاى أنا انما عملت شيئا لله تعالى ولا أقبل الجزاء على عملى هذا من أحد غيره !

وطال أمد القتال حتى فكر بعض أمراء المسلمين فى العودة الى بلادهم ، واستأذنوا السلطان فى ذلك فشق قولهم على نفسه حتى كادت نفسه تنكسر . وانهم لفى ذلك واذ بالكؤوس تدق من جانب المسلمين المحصورين بعكا ايذاناً منهم بأن الفرنج هجموا عليهم اذذاك نادى السلطان بنفسه : يا للاسلام وعساكر الاسلام !! فأخذت الحمية هؤلاء الأمراء فاستجابوا بعساكرهم لنداء السلطان انقضوا بجموعهم على الفرنج حتى أزاحوهم عن أماكنهم ، وسلكوا طريقهم الى المدينة فدخلها فريق منهم وعلى رأسهم السلطان نفسه . ثم أتى الليل فأخلد المسلمون الى الراحة من عناء الحرب ، ولكن صنيعهم هذا كان خطأ منهم وتهاوناً فى مقاتلة العدو الذى باكرهم فى الغد ، وحمل عليهم حملة أفقدتهم ثمرة الانتصار الذى أحرزوه أمس . فضاق بذلك صدر السلطان ، ونفد صبره ، وخامر اليأس

قلبه . ثم ازداد هذا اليأس فى قلبه لما سمعه من أنباء المسلمين المحصورين بعكا ، فقد وصلوا إلى الحال التى أحبوا معها الموت بعد إذ سامهم العدو خطة خسف ثارت لها نفوسهم واستشعروا فيها ذلة لم يألفها الشرف الإسلامى .

رحماك الله بهؤلاء القوم : العدو أمامهم ، والوباء الذى تفشى فى المدينة يحصد أرواحهم ، وإلى هذين العاملين القاسيين ينضم عامل ثالث ربما كان أشد منهما قسوة هو عامل الجوع !

وتصل هذه الأنباء السيئة كلها الى السلطان فى مخيمه ، فيقف كالأرملة الثكلى ، يضغط على أنيابه ، ويضرب الأرض بأقدامه ، ثم يصيح صيحة يأس زلزل لها كل عضو من أعضائه ويقول :

اقتلانى ومالكا واقتلا مالكا معى !



صديق

ليس أشق على النفس التي تعودت الظفر من يوم تمنى فيه بالهزيمة والفشل ، ومع ذلك فالنفس العظيمة هي التي تنظر إلى الفشل على أنه كسر وينجبر ، وإذا انجبر العظم فقد عاد أشد صلابة وأقوى على احتمال المحن.

لقد حزن السلطان كثيرا على عكا ، ومع ذلك لم يكن حزنه هذا خاتمة الأحزان التي أتته بسبب عكا . واذا كان ذلك ما قاساه منها والمحاصرون لها فرنج الشرق وحدهم ، فما عسى أن يقاسيه منها والمحاصرون لها هؤلاء ومعهم فرنج الغرب كلهم . وهذه جموعهم قد تدفقت سيولا عليه من أوروبا ، وانتظمت في حملة صليبية كبرى ، وزعمت أنها تستطيع تخليص بيت المقدس . ولكن هيهات لها أن تفعل وللبيت بطل يعرف كيف يذود عنه . . !

وكان من الملوك الوافدين يومئذ على حصن عكا (فردريك بارباروسا) أمبراطور ألمانيا ، و (فيليب الثاني) ملك فرنسا ، و (ريشارد الأول) ملك انجلترا :

تجمعتمو من كل صوب ووجهة على واحد ـ لازلتمو قرن واحد !!

وسارت الحملة من أوروبا ، ولكن حدث أن غرق جيش الأمبراطور في الطريق ، ووصل الى الشرق منه نفر قليل صحبوا جند العاهلين الآخرين اللذين وصلا بالجميع الى عكا .

وهنالك أمام عكا اصطفت أمم الصليب كلها قلبا وميمنة وميسرة ، ووقف في القلب ريشارد وبين يديه الإنجيل محمولا ومستوراً بثوب أطلس يمسكه من

طرافه أربعة أنفس . ثم هجم الجميع هجمة صادقة على جيش السلطان فانكسر وأصابه الوهن ، ودخل الصليبيون عكا ، وطلبوا من السلطان مالا وأسرى ، فبذل لهم السلطان مالا وأسرى ، ذلك بأنهم وعدوه على هذا البذل ألا يقتلوا من عندهم من جند المسلمين . ومع ذلك ظهرت خيانتهم ، وعادوا الى وحشيتهم التى تلطخت بها سيرتهم ، وأقبلوا على ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين فقتلوهم قتلة شنيعة ، لم يتحرك منهم قلب رجل ، ولاشعر ملوكهم بشناعة هذا العمل ، بل لهوا به كأنهم فى حفل للرقص أو الشرب . ثم أقبلوا جميعاً على لذتهم واستمتعوا ليلتهم بالطعام والنساء اللائى جلبنهم معهم لهذا الغرض .

وهكذا قدر للصليبيين مجتمعين أن يشفوا غليلهم من صلاح الدين ، فانتصروا عليه بجموعهم ولكنهم عرفوا بهذا الانتصار وحده قوة غريمهم ، وخبروا عن كثب شدة بأسه وقوة عزمه ، وعلموا أنهم لا قبلة لهم بالصبر على محاربته لاستخلاص القدس .

أما السلطان نفسه فقد أسلم نفسه للهموم والأحزان ، وشغلت قلبه أمور جسام ، لعل أيسرها هذه الهزيمة التى حلت به وبجيشه ، ولعل أخطرها تفكك الروح المعنوية فى جيشه ورغبة أمرائه فى العودة الى بلادهم .

وفى ذلك الوقت كان القاضى الفاضل بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره ويجهز له عساكره ويعمر له أسطوله ، ويشتغل بأعداد الميرة التى يحتاج اليها أهل هذه المدينة البائسة وهى عكا . فلما بلغه ماحل بالسلطان ، وأيقن أن السلطان فى حزنه لا يأكل ولا يشرب ولا يقبل من أحد سلوا ، شعر بأن عليه واجبا نحو هذا الرجل العظيم ، وهذا الواجب هو أن يقوم بتعزيته وتسرية الهم عنه .

ومن لصلاح الدين فى مثل هذا الظرف العصيب غير صديقه ومشيره القاضى الفاضل ، يواسيه بقلمه ويذهب عنه الحزن الذى أتلف نفسه وأضر بالاسلام

كله ، ويقف جهوده فى ذلك الوقت لمعالجته حتى تعود اليه نفسه ويستأنف الجهد الذى يبذله لانقاذ الاسلام من هذا الوهن الذى رماه القدر به .

اذ ذاك دارت بين الرجلين مكاتبات ، كان السلطان يشكو فيها بثه وحزنه للقاضى الفاضل ، وكان القاضى الفاضل يبذل جهده فى تقوية الرجل ورده الى شىء من الثقة بأن الله معه .

ففى أحد هذه الكتب يقول الفاضل للسلطان :

يامولانا... أليس الله أطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ، ولم يستصلح ، ولم يختر ، ولم يسهل . ولم يستعمل ، ولم يستخدم فى اقامة دينه واعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه الا أنت ؟ هذا وفى الأرض من له بالنبوة قرابة ، ومن له بالمملكة وراثة ، ومن له فى المال كثرة ، ومن له فى العدد ثروة ، فأقعدهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا اليهم ، وبغضها اليك ، وصعبها عليهم . وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

نعم وأخرى أهم من الأولى — انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض ، وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، ومزخر البحر ، ما تأخر منهم متأخر ، ولا أستبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، لا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم الى الداعى ساعين فى أثر الساعى وهم من كل حدب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون — كنت (١) يا مولانا كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظيره ... ولكنك الاسلام للشرك هازم

---

(١) جواب لما

هذا — وليس لك من المسلمين كافة ساعد الا بدعوة؛ ولا مجاهد معك الا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيارة. تشترى منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعا بباع: تدعوهم إلى الله، وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة، وكأنما تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم. والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك. فقائل لم لا تتباعد عن المنازلة، وآخر لم لا تميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ما كان فيه خطر، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلى عن عكا كأن تركها تغليق المعاملة، وما كأنها طليعة الجيش ولا قفل الدار ولا خرزة الملك:

ولكن مولانا صحيفة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور
قليل التشكى للهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

... ويريد المملوك بهذا ألا يتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشة. ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا ترى منه ضجرة، ولا تسمع منه نهرة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، ولما لم يحدث استمرار النعم لمولانا — عز نصره — بطراً، فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجراً. والمملوك يستحسن بيتى حاتم:

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى ... وما منهما إلا سقانا به الدهر
فما زادنا بغياً على ذى قرابة ... غنانا — ولا أزرى بأحسابنا الفقر

إلى آخر ما جاء فى هذه الرسالة:

وفى أخرى من الرسائل التى بعث بها الفاضل أيضا قوله:

... قيل للمهلب: أيسرك الظفر فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز، ولا بد أن تنفذ مشيئة الله فى خلقه، لاراد لحكمه. فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره

فلان بجرى القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجرى وهو ساخط موزور . ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى وأستغاث بقادر . ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب الله له استجابة ظاهرة . فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا ، ولا يقطع الظهور التى لا تشتد إلا به ، ولا يضيق الصدور التى لا تنفرج إلا منه . وما شرد الكرى وأطال على الأفكار ليل السرى الا ضائقة الفوت بعكا ، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر . فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا رب الدهر ، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر :

قد قلت للرجل المقسم أمره فوض اليه تنم قرير العين

يا مولانا ــ هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التى ناديت فيها يا خيل الله اركبى ، وهذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرؤوس ، وهذه الغمرات التى تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هى نعمة الله عليك وغراسك فى الجنة ومحملات محضرك (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) وهى مجوزاتك على الصراط ، وهى مثقلات الميزان ، وهى درجات الرضوان . فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر . ومن رباطة جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله : « لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب » .

وبهذه العزائم سبقونا وتركونا ، لا نطمع فى اللحاق بالغبار ، ونعوذ بالله من العثار ، وما استعجل الله فى القيام بالحق غير خير الخلق ، وقد عرفت ماجرى فى سير الأولين ، وفى أنباء النبيين ، وإن الله تعالى حرض نبيه صلى الله

عليه وسلم على أن يهتدى بهداهم، ويسلك سبيلهم . ويقتدى بأولى العزم منهم، وما تغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه وتعالى من عباده إلا من يعلم أنه يصبر ، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً ، وكأن ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم . وأهم الوصايا ألا يحمل المولى هماً يضعف به جسمه ويضر مزاجه ، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته ، والله يثبت تلك القاعدة القائمة فى نصرة الحق .

مناجاة

قرأ السلطان رسائل القاضى الفاضل ، فأحس بأن نفسه قد هدأت ، وان قد نبض بشيئين عظيمين : أولها الثقه بربه — وهى شىء لا ينبغى أن يفرط فيه مؤمن فى أحرج وقته ، وثانيهما الثقة بنفسه . وقد أصبح قبلة الاسلام فان وهن وهن معه الاسلام ، وان انتصر انتصر المسلمون معه فى مشارق الأرض ومغاربها .

فترك الرجل عكا وعاد بجيوشه الى القدس لأنه يعلم أن ملوك اوروبا انما أتوا من بلادهم لاسترجاعه من يده .

وكان من أشد أولئك الملوك على الاسلام واحد منهم هو (ريشارد) ملك الانجليز ، وكان يعرف بين المسلمين باسم (الانكتار) ، كما كان يلقب بين الفرنج أنفسهم باسم (قلب الأسد) . والعجيب فى هذا الملك الشاب انه استطاع بدهائه ومكره أن يصيب من النجاح ما لم يصبه هو بسيفه ، ولا أصابه جميع الذين معه بسيوفهم ورماحهم .

غير أن هذا السلاح الذى شهره الملك فى وجه غريمه اذ ذاك وهو سلاح المكر والدهاء ، كان يقابله من جانب السلطان سلاحان ماضيان هما : سلاح الإيمان والثقة بالله ، ثم سلاح الصبر وصدق العزيمة التى لا يعرف الوهن اليها سبيلا ما . وذلك كله الى ذكاء فى السلطان وفطنة لم تجز عليها قط حيلة من حيل هذا الداهية .

جمع (قلب الأسد) اخوانه الأمراء ، وذكرهم بالغاية التى أتوا من أجلها وهى انقاذ بيت المقدس ، ثم صفهم وسار بهم اليه ، وكان السلطان قد سبقهم إليه

هناك ، واشتغل باعداد نفسه للقائهم حتى حدث ما لم يكن له فى حسبان . فقد دب الخلف يومئذ بين أمراء السلطان ، واستيأس بعضهم من المضى فى القتال ، واجترأ بعضهم على أن طلب من السلطان دستوراً لينصرف كل إلى بلاده ، ويلتفت إلى مصلحة رعيته بعد إذ سئم جنده الحرب وتعبت خيلهم من عرك اللجم .

رباه ما أشد وقع هذه الصدمة على نفسك أيها الرجل ، فقد رآك أصحابك قد غبت عنهم لحظات وأنت بينهم ، وكانت كل لحظة منها أشد على نفسك من فقد ولد من أعز أولادك عليك .

غير أن هذه الحالة التى غشيت السلطان لم تدم طويلا حتى أفاق منها واهتدى الفكرة عزم على تنفيذها وخلاصتها : انه امر باستدعاء أمرائه ليكلمهم . فاجتمعوا فى خيمته ثم أمر القاضى بهاء الدين بن شداد فجعل يحثهم على الجهاد ، وكان مما قاله لهم : ان النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت فى لقاء العدو . ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم . والرأى عندى أن تجتمعوا عند الصخره وتتحالفوا على الموت . ولعل ببركة هذه النية يندفع العدو :

فوافق الجماعة على ذلك وتحالفوا وقالوا كلاما فى هذا المعنى . فلما رأى السلطان ذلك منهم وقف ليخطبهم ، والهيبة من رؤيته ، والخجل منه يحجبان الكثيرين منهم عن النظر إلى وجهه فقال :

« الحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وانتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وان هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا انتم . فان وليتم بانفسكم طوى البلاد

على السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم . لانكم انتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال . والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام »

ثم جلس السلطان ، وانتدب الأمراء أحدهم لجوابه فقال : « يامولانا : نحن مماليك وعبيدك . وأنت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا . وليس لنا الا رقابنا وهى بين يديك . والله لايرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت . »

فقرت بذلك عين السلطان وطاب قلبه وعاودته نفسه وهش لجنده ودعاهم جميعاً الى طعام اصابوا منه ثم انصرفوا .

كل ذلك والعدو قريب من القدس يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، يستقر رأيه على الهجوم ، ويشجعه عليه ريشارد ملك الانجليز ، ثم تعاوده ذكرى حطين ، فيفل ذلك من عزمه ويفكر فى الأمر من جديد .

أما السلطان فلم يطل سروره بحلف الصخرة الا ريثما أتاه نبأ خطير ، فيه أن بعض أمرائه — وكان غائباً عن المجلس — ماض فى العصيان ، وانه يرى إلا ضرر من التخلى للعدو عن القدس ، وانه لذلك لايشترك مع السلطان لا فى حماية المدينة ولا فى حصار عسقلان — وعسقلان هى الطريق الى بيت المقدس . ثم قال الأمير الثائر انه يفعل ذلك حتى لايصيبه ويصيب جنده ما أصاب المسلمين من قبل فى حصار عكا . !

إذ ذاك عاود السلطان حزنه وانقباض قلبه ، وقام فى خيمته يذود عن عينه النوم . قال بن شداد : واقمت فى خدمته تلك الليلة ، فكانت من الليالى التى أحييتها فى سبيل الله : وذلك حتى أذن مؤذن الفجر ، فأدى الرجلان صلاة الصبح ، ثم أطرقا طويلا واذا بابن شداد يقبل على مولاه قائلا له : « يامولاى — لقد وقع لى واقع اعرضه عليك . قال : وما هو ؟ قلت : اذا كثر على الرجل حزنه ، وتضاعف همه ، وعجز عن دفع شىء منه ، لم يكن له بد من الرجوع لربه . وهذا

يوم الجمعة — وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة — ونحن فى القدس — وهو أبرك موضع — فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لايشعر به أحد ، ويصلى بين الأذان والإقامة ركعتين ويناجى فيهما ربه ، ويفوض مقاليد أموره اليه ، ويعترف له تعالى بالعجز ، فلعل الله يرحمه ويستجيب له . »

ففعل السلطان ذلك ، وإذن مؤذن الجمعة فصلى ركعتين وسجد فيهما فأطال السجود وناجى ربه بما أحب ودموعه تقطر من عينه . ثم أقيمت صلاة الجمعة فصلاها وخرج من المسجد .

وفى صباح اليوم التالى وصل من أخبر السلطان بأن الفرنج اختلفوا فى قصد القدس ، وظهر منهم من اقترح الذهاب إلى مصر بدل القدس ، وانتهى بهم الخلاف فى الرأى إلى أن حكموا فى أمرهم ثلثمائة رجل من وجوههم ، وحكم الثلثمائة اثنى عشر رجلا منهم ، ثم حكم الاثنا عشر ثلاثة منهم فقط ، وبات الجيش على حكم الثلاثة فما أمروا به قام عليه . فلما أصبحوا حكم الثلاثة بالرحيل الى الرملة وترك القدس ، فلم يجد القوم سبيلا إلى المخالفة . ففرح السلطان فرحا عظيما وفرح المسلمون معه .

لعل هذه مرة من تلك المرات النادرة الوقوع فى تاريخ الحروب ، والتى فيها نرى قائداً عبقريا ، وسياسياً ألمعيا يحارب خصمه بأدوات منها حسن العقيدة واظهار العجز لا لعدوه ولكن لله الذى بيده الخير والشر .

بل لعل هذه مرة من تلك المرات النادرة الوقوع فى تاريخ الحروب ، والتى نرى فيها رجلا عسكرياً لايفكر فى الاذعان لخصومه ، والرضى بظروفه ، والفل من عزيمته ، والعدول عن خطته قبل أن يعود الى ربه يشكو اليه بثه ، ويفوضه فيما أهمه ، فلعل الله يخلق بعد عسر يسرا أو لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، والله يعطى نصره من يشاء .

مُصَاهَـــرَة

فى رواية انجليزية عنوانها الطلسم Talisman لمؤلفها الكاتب الانجليزى سير ولتر سكوت W.Scott أن نبوءة شاعت فى أوساط الصليبيين مؤداها أن صلاح الدين سيقترن بابنة عم الملك ريشارد ملك الانجليز. وأن هذه النبوءة بلغت مسامع الأميرة فباتت من أجلها حزينة كئيبة ، لأن الشرف الانجليزى والدين المسيحى يأبيان عليها أن تكون زوجا لملك مسلم ، وهى إنما تؤثر عليه فى نفسها رجلا شجاعا زعمت أنه أبلى بلاء حسناً فى الحروب الصليبية ، ثم ظهر فيما أنه وريث عرش اسكتلندا .

وتلك هى الفكرة التى نسجت حولها قصة هذا الكاتب العظيم . ونريد هنا أن نقول ان لهذه الفكرة أصلا فى تاريخ العلاقة بين المسلمين والمسيحين ، وإن كان البعد عظيما بيد هذه الفكرة التى دارت حولها القصة وبين حقائق التاريخ .

فالثابت من هذا التاريخ أن صداقته نشأت بين ريشارد ملك الانجليز وبين الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين . وكان أمر هذه الصداقة عجباً ، وكان فى الوقت نفسه سبباً من أسباب الصلح الذى سفر فيه العادل بين الملكين العظيمين . .

والظاهر أن الذى أوجد هذه الصداقة بينهما أمران :

أحدهما دهاء بالغ من جانب ريشارد ، والثانى كرم وحسن خلق بدأ من جانب السلطان . فلقد كان السلطان مثلا من أمثلة النبل واحترام الخصم ، لا يغدر به ، ولا يحمل فى قلبه غلا له ، وذلك ما كان يعرفه الخصم منه منذ اللقاء الأول ، بل ذلك ما جعله يستيقن من أنه لا ينال من السلطان منالا بطريق العنف أو

القوة بقدر ما ينال منه بطريق اللين أو المذلة . وجاء تاريخ العلاقة بينه وبين ريشارد شاهداً على هذه الأخلاق .

أما ريشارد فقد سلك فى محاربة غريمه طرقاشتى ، كان فى أثنائها يعنف مرة ويلين أخرى ، وكان يعتمد فى كل ذلك على المكر والدهاء ، ولكن مكره ودهاءه لم يجوزا على غريمه ، لأن غريمه كان على علم تام بأخلاق خصمه وخبرة جيدة به

فمن هذه الطرق التى سلكها ريشارد ، أنه فكر منذ وطئت قدمه أرض المشرق أن ينشىء وداً بينه وبين السلطان . غير أن السلطان كان من المروءة وكرم الطبيعة بحيث لا يقبل من أحد وداً حتى يكون أقدر من صاحبه على بذله والمضى فيه الى نهايته ، والود فى نظره غل فى عنقه لا يستطيع الفكاك منه . ففكر ريشارد فى أن يصل إلى قلب السلطان عن طريق أخيه الملك العادل . وكان الملك العادل أقل من أخيه صلابة ، وأكثر منه مرونة ، وأقوى منه على أعمال المكر والحيلة وكان بهذه الأخلاق أدنى إلى نفس الملك ريشارد وأكثر شبهاً به من السلطان :

وتأكدت الصداقة بين العادل والانكتار ، حتى كان هذا يدعو العادل دائماً بصديقى وأخى . وانهما لجالسان يوما فى مخيم الفرنج ، وإذا بالثانى منهما يعرض على الأول رأيا يجد فيه طريقاً إلى الصلح وإنهاء الحرب .

قال ريشارد للملك العادل عن طريق مترجم بينهما :

« يا أخى — لقد طال أمد الحرب بنا ، وأحسب أنها ستطول إلى أمد لا يعلمه أحدنا . والرأى عندى أن يتنازل السلطان لك عن البلاد التى احتلها بالساحل ، كما أتنازل أنا لأختى التى معى (وهى أرملة ملك صقلية) عن البلاد التى ملكتها وأن تتزوج أنت بأختى هذه ، ويكون القدس لكما بوصف كونكما ملكين محايدين ، تقبلان فيه المسلمين ، وتفتحان أبوابكما فيه لكافة المسيحيين ، ثم يبذل كل فريق منا أسراه للفريق الآخر . وأما صليب الصلبوت فيعاد إلى الفرنج وبذلك تنتهى الحرب » .

وعرض هذا الرأى على السلطان فابتسم ابتسامة ماكرة وتظاهر بقبوله ، ومال على أحد أصحابه وقال له انها خدعة من الملك . وفى اليوم التالى أتى من أخبره بأن القساوسة أنكروا هذا الرأى على الملك ، لأنه لا يملك تزويج أخته المسيحية من ملك مسلم بدون أن يؤخذ فى ذلك رأى الرئيس الأعلى لديانة المسيح .

ولكن ريشارد بعث إلى العادل من أخبره بأنه سير رسولا من لدنه الى البابا يستشيره فى ذلك ، وأن الرسول يعود فى ستة أشهر . فان أذن البابا فذاك وإلا زوجه الملك ابنة أخيه البكر . والبابا إنما يحتاج إلى إذنه فى تزويج الثيب من بنات الملوك ، وأما البكر فيزوجها أهلها بدون إذنه ممن شاءوا .

ويميل أكثر المؤرخين إلى أن فى اصرار الملك ريشارد على الاصهار إلى صلاح الدين ما يدل على أنه كان صادق الرغبة فى تنفيذ هذه الفكرة ، وانه كان شديد الإيمان بها ، لأنه روج لها بين المسلمين والمسيحيين ولأنه رأى فيها الحل الناجح لمشكلة القدس , كما رأى أن هذا الحل يصون كرامة الطريقين على السواء ، ويعتبر فى الوقت نفسه خطوة جريئة لنشر مبادىء التسامح الدينى . فعسى أن يحل هذا التسامح محل التعصب الذى زج بالعالم كله يومئذ فى سعير الحرب .

ومن أولئك المؤرخين السيد أمير على فى كتابه (موجز لتاريخ العرب) ، قال فيه ما ترجمته عن الإنجليزية :

« ولو قد رضى القساوسة عن هذه الزيجة وأذنوا بها لكانت حدثا هاما ننظر اليه على أنه جسر عظيم يعبر عليه السلام العالمى الذى يحلم الناس به الى اليوم » .

غير أن ريشارد ملك الانجليز لم يكد يجنى من وراء فكرته هذه غير سخرية المسلمين ، وغير تذمر الصليبيين وثورة صلاح الدين . فعدل عنها الى فكرة أخرى من أفكاره التى تأتى بعد .



صلح

فشلت فكرة المصاهرة التى شرع فيها الملك ريشارد ، فلم ييأس هذا الملك من أفكار أخرى يعمل فيها عقله ويجرب حظه . فمضى فى تعلقه بالملك العادل وجعل يبعث اليه والى السلطان بالهدايا ، وكان السلطان يرد عليه بخير منها ، واتصل الود بينهما على هذا النحو .

ثم فكر الانكتار فى رسالة كتبها الى السلطان جاء فيها قوله :

« أيها السلطان العظيم : تعلم أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد . وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس ، والصليب ، والبلاد . والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا رجل واحد . وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع (الأردن) . وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار لها ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب » .

فلما قرأ السلطان الكتاب أمر بأن يكتب له الجواب وفيه قوله :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة . فلا تتصوروا أننا ننزل عنه . وأما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت . وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هى أوفى منها » .

فى ذلك الوقت كان خلاف شجر بين ملوك أوربا الذين أتوا من بلادهم لتخليص بيت المقدس. وهو خلاف قسم الجيوش الصليبية قسمين متنافرين وكان من نتائجه أن عاد الملك فيليب الى بلاده وترك ريشارد يعمل وحده لتخليص بيت المقدس، فلما رأى ريشارد ذاك، وقرأ جواب السلطان أرسل اليه رسالة أخرى حملها ابن أخته وجاء وفيها:

« أيها السلطان: هذا ابن أختى ملكته البلاد وسلمته اليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك. ولو قد دعوتهم الى الشنق سمعوا وأطاعوا، ثم ان جماعة من الرهبان قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وأموراً جرت فى المراسلة مع الملك العادل فتركتها وأعرضت عنها، ولو أعطيتنى مقرعة أو خرابة قبلتها » . .

فلما قرأ السلطان الكتاب جمع أرباب المشورة وسألهم عما يكون الجواب، فكلهم أشاروا عليه بالحسنى والملاينة. فالتفت السلطان الى بهاء الدين بن شداد وكان الى جانبه وقال له:

« والذى نفسى ونفس محمد بيده أيها القاضى اننى لاأحب الصلح الآن ولا أعمل له! » قال القاضى « ولم ذلك يامولاى؟ » قال « لأنى أعلم أنه متى صالحناهم لا تؤمن غائلتهم، فانى لو حدث بى حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر، وتقوى الفرنج. فالمصلحة عندى الا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت »:

ومع ذلك نزل السلطان عن رأى الجماعة وأمر بكتابة الجواب الى الانكتار وفيه قوله:

« أيها الملك أما اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان فان ابن اختك هذا يكون عندى كبعض أولادى وسيبلغك ما أفعل معه.

وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القمامة : وأما بقية البلاد فنقتسمها فالساحلية التى بيدك تكون بيدك ، والذى بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، وما بينهما يكون مناصفة . وأما عسقلان فتكون خرابا لا لنا ولا لكم والسلام » .

وأتى الجواب الانكتار فقرأه وغضب لإصرار السلطان على تخريب عسقلان . وكانت لعسقلان أهمية حربية لأنها مفتاح القدس ، من ملكها فقد ملك القدس . وقد عرض السلطان على أمرائه وأجناده أن يحاصروها فخالفه الأمراء جميعاً فى حصارها وخافوا على أنفسهم فيها يوما كيوم عكا ، فلم ير السلطان بدأ من خرابها ، وعبثاً حاول الانكتار رده عن هذا الرأى :

كل ذلك والقتال بين المسلمين والصليبيين على أشده ، بل كل ذلك والملك ريشارد لا ييأس من الظفر بعسقلان فبعث الى السلطان رسولا يسأله أن يمن على على الانكتار بعسقلان ويقول له فى رسالة طويلة :

« وانك ان نزلت عنها أمكنك أن تقضى الشتاء بعيداً عن ميدان القتال »

فلما قرأ السلطان الرسالة ابتسم ابتسامة السخرية وكتب يقول له :

« أما النزول عن هذه المدينة فلا سبيل اليه . وأما الشتاء فاذا كان يسيراً عليك أن تقضيه هنا بعيداً عن أهلك ووطنك ، وبينك وبينه مسيرة شهرين ، أفلا يسهل على أنا أن أشتى وأصيف وأنا فى وسط بلادى ، وعندى أهلى وأولادى ، ويأتى إلى ما أريد ؟ وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ونفضتها عنى والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف . وأنا أعتقد أننى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » .

فلما قرأ الانكتار جواب السلطان طلب أن يجتمع بالملك العادل فأذن له السلطان فى ذلك ، فسار اليه فى خيمته ، فاستقبله الملك استقبالا رائعاً برغم أنه

كان مريضاً قد ألح عليه المرض منذ أيام ؛ وأقبل على العادل يقول له : يا أخي الملك : الى كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني. وأنا كنت أحرص على العود الى بلادي . وأما الآن وقد هجم الشتاء وتغيرت الانواء فقد عزمت على الاقامة » .

قال العادل « وماذا يضر السلطان لو طالت إقامتك أيها الملك . لقد فاوضته في شروطك ، وألححت عليه فيها فما كان جوابه الا ما أجابك : فلك أن تطلب منه شيئاً آخر غير عسقلان فعسى أن يقبل أن يعطيك » .

قال ريشارد « فأنا أطلب منه يافا » وكانت يافا من المدن التي فتحها المسلمون في أثناء المفاوضة . فلما ذهب العادل الى السلطان يكلمه فيها قبل . ففرح الانكتار بهذه المدينة ورجع عن الكلام في عسقلان . وقال لرسله « اذهبوا الى السلطان وقولوا له : مبارك — رضينا بهذه القاعدة ورجعنا إلى مروءتك فان زدتنا فمن فضلك وإنعامك » .

ثم كتبت نسخة الصلح ، وفيها أن تكون بلاد الشاطىء من صور إلى عكا بيد الفرنج ، وأما عسقلان فتكون خراباً ؛ وللمسلمين أن يقيموا في بلاد الفرنج وللفرنج أن يقيموا في بلاد المسلمين . وأما القتال فيقف بين الفريقين ثلاثة أعوام كاملة » .

وهذا هو الصلح الذى عرف في التاريخ باسم صلح الرملة ؛ وقع السلطان عليه بيده وحلف عليه وحلف الملوك والأمراء وأكابر الدولة معه . ثم ذهب الرسول بالنسخة إلى ريشارد فوجده مريضا فقال « قد صالحت وهذه يدي ؛ ومد يده .

ثم أمر السلطان المنادى أن ينادي في الاسواق كلها : الا ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل . إلا وأن طريق الحج قد فتح من الشام ؛ فمن كانت له رغبة في الحج فليعزم على بركة الله » .

وفاة

أمضى السلطان شروط الصلح . ثم من القدس إلى دمشق ، ودمشق من أحب المدن إلى نفسه لأنه قضى بها أيام الصبا . ولما علم الناس بوجوده بها أتوا لرؤيته بها من كل صوب ، وانهال عليه الشعراء من كل حدب ، وأتاه الملوك من أولاده — كل يريد أن يتملاه ويستمتع بالنظر اليه .

وكان القاضى بهاء الدين بن شداد متخلفاً عن السلطان بدمشق ، فبعث السلطان من أحضره اليه ، فدخل عليه وقام السلطان للقائه ، وكان لقاء حارا دمعت فيه عين كليهما فى ذلك الوقت .

ثم كان من أصحاب السلطان من بنى له فى دمشق التى يحبهـا قصراً ، وأتى يدعوه للاقامة به . فنظر السلطان إلى القصر طويلا ثم ابتسم واتجه إلى أصحابه قائلا « ما كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الأبد . فهذا منزل لايصلح لمن طلب الموت . وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه . والله ان المال والتراب لسواء عندى . وإن خيمة تعصف الرياح من خروقها لأحب إلى نفسى من هذا القصر الذى ترون » .

فتعجب الحاضرون من قوله ، وفهموا سراً من أسرار عظمته ، وسبباً من أسباب انتصاره بمفرده على جميع ملوك الفرنج .

ورجع السلطان ورجع فى خدمته القاضى بهاء الدين بن شداد حتى اتيا بستانا فدعا فيه أولاده الصغار فأخذ يداعبهم ويلاطفهم ، وكان بالباب رسل من الفرنج قد حلقوا لحاهم ، وقصوا شعورهم على عادتهم ، فلما رآهم الأطفال صرخوا

وفزعوا إلى والدهم ، فأمر والدهم أن ينتظروا ريثما ينتهى من تهـدئة نفوسهم ويفرغ من مباسطتهم .

ثم دعا السلطان بالرسل فكلمهم وانصرفوا ، ثم دعا بابن شداد وسأله عن خبر الحجاج ، فقال انهم يدخلون دمشق غداً ، ففرح السلطان ، وأعد نفسه للقائهم ، وأمر بتنظيف الطرق وتجفيفها من الوحل .

وبعد ليال شعر السلطان بشىء من الثقل فى جسمه ، واضطره الثقل إلى ملازمة فرشه . وهنا ندع المكان لصديق السلطان — وهو هنا القاضى بهاء الدين ابن شداد — فلتحدث لنا عن مرضه ثم موته ، قال :

« أصبح السلطان متكاسلا عليه أثر الحى حتى حضرت انا والقاضى الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا جميعاً عنده ، وأخذ يشكو من قلقه طول الليل ، وطاب له الحديث إلى قرب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده .

وفى اليوم الثانى تقدم السلطان الينا بالحضور على الطعام فى خدمة ولده الملك الأفضل . ومد الطعام وجلس الأفضل مكان أبيه ، فاستوحشنا وبكى الجميع لجلوس ولده فى موضعه .

ثم أخذ المرض يتزايد منذ حينئذ ، ونحن نلازم التردد طرفى النهار ، وندخل اليه انا والقاضى الفاضل فى النهار مراراً ، وذلك حتى انتهى إلى غاية الضعف .

ولقد جلسنا فى سادس مرضه ، وأسندنا ظهره الى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا شدة حره ، وعرض عليه ماء ثان ، فشكا من شـدة برده ، ولم يغضب ، ولم يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله — الا يمكن أحـد تعديل الماء ؟ فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد البكاء ، والقاضى الفاضل

يقول لى : أنظر هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على فقدها . والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره .

ولما كان التاسع من مرضه ، حدثت له غشية وامتنع عن تناول الدواء فاشتد الخوف فى البلد ، وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن وصفه ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقصد اليه فى كل ليلة إلى أن يمضى من الليل ثلثه أوقريب منه . وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ثم تزايد اليبس على السلطان تزايداً عظيما وتحير الأطباء من حوله .

ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده وتحقق الناس موته ، أسرع فى تحليف الناس ، واستحضر القضاة ، وعملت له نسخة يمين تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته .

ولما كان السابع والعشرون من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة اشتد بالسلطان المرض ، وضعفت قوته ، واستدعيت أنا والقاضى الفاضل وابن الزكى ، ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت . وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمرنا أن نبيت عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا ، لأن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة ، نخاف ان لم ننزل ان يقع الصوت فى البلد ، وربما نهب بعضهم بعضا . فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر — وهو رجل صالح — ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل ، حضر عنده وحال بينه وبين النساء . وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى . ففعلنا ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه .

وغاب ذهن السلطان فى تلك الليلة والى جانبه الشيخ أبو جعفر يتلو القرآن ، فلما انتهى الى قوله تعالى : هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ،

سمعه يقول : صحيح ! صحيح ! ثم لما أتى الى قوله تعالى (لا إله إلاهو عليه توكلت) تهلل وجهه وسلمها الى ربه .

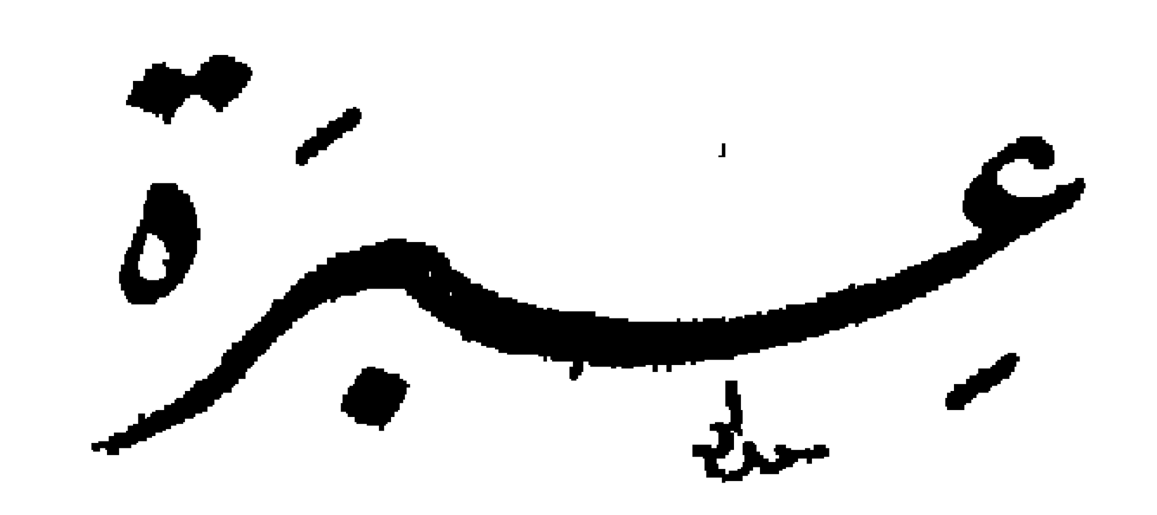
قال ابن شداد : وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعةو البلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى ... الخ .

ثم جلس الملك الأفضل للعزاء فى اليوم الأول جلوسا خاصا ، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين من رجال العلم . وفى اليوم التالى جلس الأفضل للعزاء جلوسًا عاما ، واطلق باب القلعة ، فدخل الفقهاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون يومئذ الا انه لم يؤذن لأحد من الشعراء أن ينشد شيئاً .

وأخيراً تجهز الناس لدفن السلطان ، فدفن بقلعة دمشق ، ووقف الناس يبكونه بكاءاً مراً ، وانهم لفى بكائهم ونشيجهم واذا بالقاضى الفاضل يرفع فى يده سيفاً ويقول لهم « هذا هوسيف مولاى ، ادفنوه معه فانه يتوكأ عليه الى الجنة . »

وكذلك مات السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة واربعين درهما ناصرية ، ودينارا واحداً ذهبا ، ولم يخلف ملكا ، ولا داراً ، ولاعقارا ، ولا بستانا ولا مزرعة .

ثم ان الأساطير الاوروبية التى عنيت بوصف حياته ، أحسنت أيضاوصف مماته واحاطته بهالة من الاحترام والتقدير ، وصورت لنا بطل المسلمين وقد حضره الموت فدعا اليه حامل العلم وأوصاه قائلا : انت الذى حملت رايتى فى الحرب ، وأنت الذى تحمل رايتى كذلك بعد الموت . فدعها تكن خرقة بالية ، واحملها على رأس رمح طويل ، وطف بها ربوع دمشق ، وادع الناس لينظروا اليها وانت تقول : هاهو ذا ملك الملوك ، مات ولم يأخذ معه سوى خرقةواحدة كهذه الخرقة البالية : وفى رواية أخرى : من جميع الممالك المترامية التى ملكها صلاح الدين ، والكنوز العظيمة الممتلئة بالذهب والفضة ، لم يستطع السلطان أن يأخذ لنفسه اكثر من هذه الاذرع الثلاثة من نسيج الكتان لكفنه التى لف به فى قبره



ثلاثة يمكن ان نعتد برأيهم ، ونطمئن إلى حكمهم على صلاح الدين ، لأنهم عاشروه ولازموه ، وكانو أعرف الناس به وبخلقه وشمائله . هؤلاء الثلاثة هم القاضي الفاضل ، وابن شداد ، والعماد الإصفهاني . وإدا ذهبت تصدق ما قاله هؤلاء عن السلطان — فستقف معهم مبهوتاً أمام عظمته ، مؤمناً بأن الشرق لا يصلح له إلا رجل له نفس كنفسه وعزيمة كعزيمته . فما هي بعض نواحي العظمة فى هذا السلطان ، وأيها أولى من غيرها بالإعجاب والإعظام ؟

لقد تقرأ كثيراً عن نوابغ الحرب ، ولقد تعجب كثيراً بما يظهرونه من الشجاعة والصبر ، ولكنك لم تسمع بعد — إلا فى فترات قليلة بل نادرة من فترات التاريخ — أن جندياً جمع إلى نبوغه فى ميدان القتال نبوغا آخر فى ميدان الأخلاق . وبحسبك أن تعلم أن صلاح الدين كان هو الرجل الذى بنى حياته كلها على سياسة الوفاء والجلاء وانه كان أبعد الناس عن هذه الطرق الغامضة الملتوية التى نعرفها فى أخلاق الساسة قديما وحديثاً .

ولقد تقرأ كثيراً عن مشهورى الملوك ، ولقد تعجب بما يظهرونه أحياناً من التواضع والنبل وحسن السلوك ، ولكنك لم تسمع إلا فى فترات قليلة بل نادرة من فترات التاريخ — أن ملكا — مهما بلغت دمقراطيته من النضوج — قد أخضع نفسه للقانون ، وسوى فى ذلك بينه وبين أفراد شعبه ، وجعل القانون فوقه لا تحته ، ووقف أمام القاضى جنباً إلى جنب مع الخصم .

ولقد تقرأ كثيرا عن أخبار الفاتحين ، ولقد تعجب بمهارتهم فى اكتساح

الممالك فى وقت قصير ، ولكنك لم تسمع إلا فى فترات قليلة — وإن لم تكن نادرة من فترات التاريخ — ان فاتحا دخل وفى يده اليمنى سيف يشهره ؛ وفى اليسرى رأى ينشره ، لا يعرف لحياته معنى إلا بنجاحه فى نشر هذا الرأى الذى يؤمن به ويجزم بفوائده .

الحق لقد كان السلطان الملك الناصر صلاح الدين رجلا تجتمع فيه كل هذه الخصال بل رجلا يمكن أن تكون سيرته مثلا صالحا لكل واحدة منها فإذا اردت ان تزن صلاح الدين ؛ فلا تزنه بواحد فقط من عظماء التاريخ ؛ وإنما زنه بثلاثة أو اربعة منهم — يختص كل عظيم منهم بناحية من نواحى العظمة لا يمتاز بها احد سواه .

كان صلاح الدين نابغة فى الحرب ، وكان قديساً لا نظير له فى الغيرة على الشرع ، وكان ملكا عادلا ينصف الناس من نفسه ويسوى فى القضاء كما قلنا بينه وبين أفراد الشعب ، وكان مع هذا كله مثلا أعلى للخلق الديمقراطى فى أروع مظاهره ، ثم مثلا أعلى للغيرة على نشر العلم والأدب يبنى عليهما سلطانه ويعتمد عليها فى ترقية بلده وإسعاد رعيته .

وأشهد لقد وجدت فى هذه السيرة الموجزة التى كتبتها عن صلاح الدين أنه كان رجلا يحارب أعداءه بأسلحة كثيرة منها سلاح الخلق أو الضمير ، وهو سلاح غريب وطراز من أدوات القتال عجيب ، ليت أن العالم كله قد تعلمه منه أو ليت أن المدينة الحديثة آمنت به وتلقته درساً نافعاً عنه .

ومن الأمثلة على هذه الميول الديمقراطية التى نعجب بها ، ولا نجد فى أيامنا هذه نظيراً لها — قضية يوردها القاضى بهاء الدين بن شداد ويذكر أنه شهدها — قال :

« كنت يوما بمجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل على شيخ حسن

تاجر معروف يسمى (عمر الخلاطى) معه كتاب فيه حكم يسأل فتحه. فسألته من خصمك؟ فقال: خصمى السلطان، وهذا بساط العدل، وقد سمعنا أنك لا تحابى.

قلت وفى أى قضية هو خصمك؟

قال: إن (سنقر الخلاطى) كان مملوكى، ولم يزل على ملكى إلى أن مات، وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها، واستولى السلطان عليها، وأنا مطالبه بها.

فقلت له: يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية؟

قال: الحقوق لا تبطل بالتأخر، وهذا الكتاب ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات.

فأخذت الكتاب منه، وتصفحت مضمونه، فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وأنه قد اشتراه من فلان التاجر يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه إلى أن شذ عن يده فى سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه يوم ما. فتعجبت من هذه القضية وقلت الرجل: لا ينبغى سماع هذا بلا وجود الخصم، وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده:

فرضى الرجل بذلك واندفع. فلما اتفق مثولى بين يدى السلطان فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيما وقال: أكنت نظرت فى الكتاب؟

قلت: نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق، وقد كتب عليه «كتاب حكمى من دمشق، وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون»

قال السلطان: مبارك — نحن نحضر الرجل ونعمل فى القضية ما يقتضيه

الشرع !! أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل إلى هنا .

ففعلت ذلك ثم أحضر الرجل واستدناه السلطان حتى جلس بين يديه ، وكنت إلى جانبه ، ثم نزل السلطان عن طراحته ثم ساوى الخصم به ، ثم قال له : إن كان لك دعوى فاذكرها :

فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا ، فأجابه السلطان :

إن (سنقر) هذا كان مملوكى ، ولم يزل فى ملكى حتى أعتقته ، وتوفى وخلف ما خلف لورثته :

فقال الرجل : لى بينة تشهد بما ادعيته :

ثم سأل فتح الكتاب ففتحته فوجدته كما شرحه .

فلما سمع السلطان التاريخ قال :

عندى من يشهد أن (سنقر) هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر ، وانى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وانه لم يزل فى يدى وملكى إلى ان أعتقته :

ثم استحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ذكره .

فأبلس الرجل ، فقلت للسلطان :

يا مولاى — هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدى المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد :

فقال السلطان : هذا باب آخر !!

وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة شذ عنى مقدارها » .

قال ابن شداد « فانظر إلى مافى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة ، والانقياد الى الحق ، وإرغام النفس فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة ! »
أجل — ومثل آخر من أمثلة حلمه وحسن تخلقه ربما كان أقل من المثل السابق فى روعته — وإن لم يكن أقل منه قيمة فى عبرته » : —
قيل ان رجلا من خدم السلطان رمى رجلا آخر مثله بحذاء فى يده ، فاجتاز الحذاء الخادم إلى السلطان فى خيمته ، فأدار السلطان وجهه ، وانتحى به ناحية أخرى كيلا يحرجهما — إلى أن ابتعدا عنه حياء منه فهب أن ذلك حدث لبعض الناس فكم كان يؤذى خادمه ويضربه ولو بدعوى انه يؤدبه ؟ وفى الذى ذكرناه من أخبار السلطان بعد فتح القدس من نقله الحجارة بيده , وحمله التراب على كتفه ، ومعاملة أعدائه الذين انهزموا معاملة قوامها العطف والحنان ثم فى شفقته على الناس جميعاً لا فرق عنده فى ذلك بين انسان وإنسان ، مايكفى بعضه لأن يرفع الرجل فى سلم الأخلاق إلى الدرجة التى قد لا يبلغها أحد سواه .

* * *

على ان الحياة نفسها لم تكن فى نظر هذا الرجل عدوا يؤسر ، وبلادا تقهر ، وحصونا تنهار ، وحروبا تثار ، وإنما الحياة الصحيحة عنده هى فى علم ينشر وأدب يزهر ، وعقيدة تظهر وتتطهر ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ومن هنا جاء فضله على الحضارة الإسلامية والعقل الإسلامى فى القرون الوسطى .
كان هذا الرجل يؤمن بأن العلم وحده سبيل الحضارة والرقى ، وعلاج للنفوس التى مسها طائف من الالحاد أو الزيغ ؛ وكان يرى فى الفاطميين أنهم أساءوا إلى أهل مصر إساءة دينية بالغة بل كان يرى أن مذهبهم أضر بالعقول ضرراً يخشى أنها لا تصلح من بعده أبداً ؟ . والا — ففيم القول بعصمة على والأئمة من بعده ، والعصمة فى الاسلام لا تكون لغير الأنبياء ؟ ففيم التبرك بالمزارات

والتمسح بالأعتاب والتالتوسل الى الله لا بالعمل الصالح ولكن بمن زعموهم من الأقطاب والأولياء ؟ ثم فيم التكلف فى شرح القرآن الكريم ، وفيم الاسراف فى تأويله لجمهور المسلمين ، وفيم الاستعانة على هذا كله بالمنطق والفلسفة ، بل فيم الإغراق فى أخذ المسلمين عن المجوس وغيرهم من أصحاب الفرق الاسلامية الغالية كفرقة القرامطة ؟ ثم ما العلم الباطن ؟ وما الحدود الروحانية ؟ وما الحدود الجسمانية ؟ وماهذه البدع الشيعية التى ذهبت ببساطة هذا الدين ، وأضرت بعقول المسلمين ، وتركت أهل مصر وغيرها الى ما بعد الدولة الأيوبية ؛ بل الى يومنا هذا يأتون من الأعمال القبيحة والحركات السخيفة فى بعض المساجد ما يندى له جبين الدين ويستحي من بعضه جمهور العقلاء والمفكرين ؛ ويقدرون معه هذه اليد التى أسداها صلاح الدين الى المسلمين بردهم عن كل هذا السخف أو العبث ؟

ولكن فى سبيل هذه الغاية الدينية ارتكب السلطان خطأ كبيراً فى نظر المؤرخين للحياة العقلية وهذا الخطأ هو أنه حارب الفلسفة والمتفلسفين ، وعاون فيما يزعم هؤلاء المؤرخون على احداث الشلل العقلى الذى أصاب الشرق منذ ذلك الوقت .

نعم — حارب الرجل الفلسفة وطارد الفلاسفة، ولكن ليس معنى ذلك مطلقاً أنه يعتبر مسؤولا عن تأخر الحركة الفكرية على النحو الذى يتصوره المؤرخون للحياة العقلية فهو انما طارد الحكماء والمتفلسفين ، لأنه ثبت له بالدليل القاطع أنهم المسؤولون عن زيغ المسلمين ، وبهم استعان الفاطميون على غزو أذهان العامة والخاصة ومنهم أخذ هؤلاء الطرق التى فلسفوا بها مذهبهم وأحدثوا بها بمذهبهم صدعا عظيما فى جبهة الدين الإسلامى .

وأذن فأولى لمن يؤرخون للحركة العقلية فى القرون الوسطى أن ينظروا الى صلاح الدين على أنه الرجل الذى حرر عقول المسلمين، وغسل عقيدتهم من أوضار الأوهام والبدع التى أتى بها الفاطميون ، ونهض منذ الساعة التى وطئت فيها قدمه أرض مصر بنشر المدارس فى طول البلاد وعرضها ، وكان له هدفان عظيمان من وراء نشرها ، وهما : إعادة الناس إلى المذهب السنى من جهة ، واشاعة الحماس الدينى فى قلوبهم ضد الخطر الصليبى من جهة ثانية .

* * *

وإلى جانب تلك النواحى الحربية والخلقية والعلمية والحضرية كان لهذه الشخصية ميل ظاهر إلى الناحية الأدبية ولا ريب أن نفساً كهذه النفس ، كان لابد لصاحبها أن يكون أديب الطبع مرهف الحس بل من أجل هذا كان استمتاعه بعالم الروح أظهر من استمتاعه بعالم المادة . فلم يحفل يوما بأن يكون له قصر أو حديقة أو مزرعة ، ولا حاول أن يستمتع بما يستمتع به الملوك من ترف ونعيم وأبهة . بل كان إذا ذكر المال أمامه يقول « يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب » وكأنه كان بهذا القول يعنى نفسه

وماذا يقول التاريخ فى رجل كان له ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته ثم لا يعرف عنه أنه ادخر مالا استحق عليه الزكاة ، أو استطاع الحج لخلو يده عما يليق بأمثاله من الملوك وذوى الجاه ؟

وأما ميوله الأدبية نفسها فهى أوضح من أن ندل عليها ، فلقد كان السلطان يهتز اهتزازاً عظيما للشعر ، وكان يظهر استحسانه للجيد منه ويكثر من ترديده فى مجالسه . وقيل أن ديوان الحماسة لأبى تمام كله كان من حفظه ، وكان كثيراً ما ينشد قول الشاعر :

وزارنى طيف من أهوى على حذر   من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولى به فرحا   وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى   نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول شاعر مصرى فى خضاب الشيب :

وما خضب النـاس البياض لقبحه   وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولـكنه مات الشباب فسودت   على الرسم من حزن عليه منازله

فكان إذا قال « ولـكنه مات الشباب » يمسك كريمته وينظر اليها ويقول : أى والله مات الشباب !!

* * *

بتلك الأخلاق التى اشتهر بها صلاح الدين ، وبهذه النزعات التى عرفها فيه المسلمون والصليبيون أصبحت له شخصية جذابة استطاعت أن تؤثر فى الخلقين الشرقى والأوروبى فى القرون الوسطى ، فأما الخلق الشرقى فقـد شاع فيه الميل الى التضحية وإنـكار الذات ، وساده نوع من التصوف والزهد فى نعيم المـادة وأما الخلق الأوروبى فقـد تلخص عندهم فى نظام لهم هو (نظام الفروسية) وهو نظام يعتمد على طائفة من أخلاق دينية وأخرى مربية . وقد اتفق الباحثون من الأوروبيين على أن أوروبا قد اقتبست هذا النظام البديع نفسه عن المسلمين وذلك فى الحروب الصليبية التى اشتبكوا فيها مع صلاح الدين ورأوا فيها بسالته بأعينهم ولمسوا عظمته بأنفسهم ، ثم عادوا الى بلادهم وقصوا على مواطنيهم أخبار هذا البطل الإسلامى الجليل ، فتأثر بأخباره الأوروبيون ، وأخذوا ينسجون حوله القصـص والأساطير ، وكان لهـذا كله أثر عظيم فى الحياتين الأدبية والاجتماعية فى أوروبا فى القرون الوسطى .

* * *

﴿ وبعد ﴾ فهذه أطراف من سيرة رجل عظيم ومحارب إسلامى قديم، وكان كثيراً ما يكتفى من دنياه بخيمه مقصف الرياح من خروقها، وطعام يسير اقد لا يكفى أهون من عنده من الخدم، ولباس خشن لا يصح أن يقاس بلباس الوزراء والكبراء ومن دونهم فى دولة كالدولة الفاطمية التى أزالها، يقضى نهاره على ظهر جواد لا يريح ولا يستريح، ثم يقضى أكثر ليله فى جهاد قائم على ذكر وعبادة وتسبيح، وكأنما الخيمة التى ينام فيها صومعة عابد أودير راهب

وعلى هذه الطريقة الخشنة قضى الرجل معظم حياته حتى مات وهتف التاريخ فى أذن الدنيا بهذه العبارة التى نسمعها منه كلما انقضت دولة وأتت أخرى وهى قوله :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

صلاح الدين الأيوبي
مهداة

الى الأديب المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة مع التحية [1]

بطلُ الشرقِ غيرُ خافٍ بلاؤه ... أرضُه تزدهي به وسماؤه

صورٌ من محاسنٍ صاغها اللهُ ... مثالاً تباركت أسماؤه

رقَّ حتى لقيل: نفحةُ روضٍ ... كللتْ وشيَ زهرِه أنداؤه

وسطا، فالحمامُ أحمرُ لا يؤمنُ ... بالليل والنهار لقاؤه

---

١) تفضل الأستاذ الشاعر على الجنـدي فأهدى إلي هذه القصيدة الجلية فأقدم له أصدق الشكر المؤلف

وعفا ، فالحياة فاءت إلى الجا
نى ، وفى مخلب الردى حوباؤه
لم يكن « يوسف » الجمال ، ولكن
« يوسف » النبل ما حواه رداؤه
ابن « يعقوب » وابن « أيوب » صنع
قدسى إلى السماء انتماؤه
داء أعدائه ويأتيهمو منه
ـ بلا منة ـ عليهم دواؤه
والأسارى ضيوفه ، وعريق
فى الندى من ضيوفه أسراؤه
أيدته خلف العوالى سجايا
ه وأبلت دون الظبا آراؤه

كيفَ يطوِى الخِذْلانُ أعلامَ جيشٍ
البسطولاتُ كلُّها نُصراؤه

كلُّ غازٍ لمْ يدَّرِعْ شرَفَ النف
سِ هوَى قبلَ أنْ يَتِمَّ بِناؤه

* * *

لم يَكُنْ للصَّليبِ خَصْماً ، ولكن
حامِلوه — يومَ الوغى — خُصَماؤه

شهَروا السَّيفَ ، والمسيحُ برئٌ
مِنْ سيوفٍ يستَلُّها أولياؤه

فأتاهم تحت « الهلال » حسامٌ
ليسَ يُخزيه فى الهِياج مَضاؤه

قينه الحقُّ، والشّجاعةُ والبأ
س غِرَاراه، والسّماحةُ ماؤه

من سيوفِ الاسلامَ طَابِعُهُ الخا
لقُ، لا «هِنْدُه» ولا «صَنْعاؤه»

عاثَ فيهم: فهاربٌ واسيرٌ
وقتيلٌ تناثرتْ أشلاؤه

يومُ «حِطّينَ» حطَّ كلَّ رفيعٍ
منهمو طاوَلَ السِّماكَ سَنَاؤه

هكذا البغيُ ليس ينصرُ باغٍ
صارِعُ المعتدِى الاثِيمِ اعتداؤه

وانثنى خاشعاً، وانْ راحَ مُخْتَا
لا على قِمّةِ السّحاب لواؤه

لم ترح له المخيلة عطفا

وجميل من ظافر خيلاؤه

حامى «القدس» أين ريشارد؟ لا أين م

قضى الليث ، وانطوى حلفاؤه

فارس الغرب راعه فارس الشر

ق ، ويذرى فضل الفتى أكفاؤه

لم تخيب رجاءه حين رام السلم

والحر لا يخيب رجاؤه

لا ترعك الوغى فأحلافنا اليوم

على دفع شرها ـ خلفاؤه

رب خصم سقاك صابا ، سقاك الشهد

صفوا ـ من بعده ـ أبناؤه

فى ظلالِ «الفيحاء[1]» يرقدُ حرٌّ

طال ـ فى نصْرةِ الحَنيفِ ـ عَناؤه

كانَ منْ دينه رقيبٌ عليـه

ورقيبٌ ـ على الرقيب ـ حياؤه

أشرفُ الفاتحين نفساً وسيفـاً

مَنْ أشادَتْ بفضـله أعداؤه

نزل الخلْدَ فى الحياتَيْنِ لا يُنْسَى

عظيمٌ ، ولا يَضيع جزاؤه

على الجندى

---

(١) دمشق

فہارس

صفحة

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن



دار العلمين للطبع والنشر
١٩ شارع مصطفى بك سري بالحلمية الجديدة بـ

